قصة التجارة الدولية

تأليف

فيليس دين

ترجمة

حسين أبو الليف

تقديم ومراجعة

جمال عمران

الكتاب: قصة التجارة الدولية

الكاتب: فيليس دين

ترجمة: حسين أبو الليف

تقديم ومراجعة: جمال عمران

الطبعة: ٢٠٢١

الناشر: وكالة الصحافة العربية (ناشرون)

٥ ش عبد المنعم سالم – الوحدة العربية – مدكور- الهرم – الجيزة

جمهورية مصر العربية

هاتف: ٣٥٨٢٥٢٩٣ – ٣٥٨٦٧٥٧٦ – ٣٥٨٦٧٥٧٥

فاكس: ٣٥٨٧٨٣٧٣

http://www.bookapa.com **E-mail:** info@bookapa.com

دار الكتب المصرية

فهرسة أثناء النشر

دين، فيليس

قصة التجارة الدولية / فيليس دين، ترجمة: حسين أبو الليف، تقديم ومراجعة: جمال عمران

– الجيزة – وكالة الصحافة العربية.

٧٣ ص، ١٨*٢١ سم.

الترقيم الدولي: ٥ – ١٢٠ – ٩٩١ –٩٧٧ –٩٧٨

أ – العنوان رقم الإيداع: ٣٠٥٦ / ٢٠٢١

قصة التجارة الدولية

وكالة الصحافة العربية
«ناشرون»

مقدمة

قد تكون التجارة أقدم نشاط مارسه الإنسان بعدما تكاثر، فالتجارة باختصار هي تبادل، تبادل سلعة بسلعة، أو سلعة مقابل عمل وجهد، أو سلعة مقابل نقود، تلك هي التجارة في أبسط صورها، وفيما بعد تم تبادل الخدمات وليس السلع أيضا، وعادة بنفس الطريقة.. أما التجارة الدولية فهي تبادل السلع والخدمات عبر الحدود بين الدول، وتشكل حصة كبيرة من الناتج المحلي الإجمالي في مختلف البلدان.

ويرى العلامة عبدالرحمن بن خلدون وفي مواضع مختلفة من مقدمته الشهيرة أن "الحس التجاري" هو معرفة القيمة الحقيقية التقريبية لأي سلعة من خلال التدقيق في مكوناتها؛ أي ما تحتويه من مادة خام – ومدى الجهد = البشري – المبذول فيها، ويرى أن التاجر الذي يحقق النجاح هو الذي يضيف ثمن جهده على القيمة الحقيقية للسلعة حين تباع بالجملة، وذلك يصدق على التجارة بين الدول كما ينطبق على التجارة بين الأفراد.

الرأي نفسه تراه الباحثة الاقتصادية الإنجليزية " فيليس دين" التي تستعيد في كتابها "قصة التجارة الدولية" التاريخ الطويل للتجارة، وسردته باعتباره يُمثل قصة، وفي الكتاب تصف تلك القصة

بأنها "قصة لا نهاية لها؛ لأنها مستمرة في كل مكان وزمان"، والكاتبة "فيليس دين" سليلة أسرة إنجليزية كانت تعيش في "نياسالاند"، وهي مُستعمرة إنجليزية قديمة تغير اسمها بعد الاستقلال إلى جمهورية مالاوي، وهناك تلقت تعليمها وعاشت في بيئة كولونيالية، قبل أن تتزوج وتعود إلى لندن لتعيش وتعمل وتتخصص في مجال الأبحاث الاقتصادية المتعلقة بالتعاون الاقتصادي الدولي، وقد صدرت الطبعة الأولى من كتابها في لندن في عام ١٩٥٠، وسرعان ما تمت ترجمته إلى العديد من لغات العالم، فهو زاخر بالمعلومات الاقتصادية المعروضة بأسلوب سلس ومشوق، مما يتيح لغير المتخصص فرصة الإلمام بالموضوعات الاقتصادية رغم صعوبتها، فالمؤلفة فضلًا عن سهولة أسلوبها تجنبت استخدام المصطلحات الفنية والنظريات العويصة التي قد يشق عليهم فهمها.

ويعرض الكتاب لقصة التجارة الدولية من خلال ستة فصول قصيرة، تبدأ بالحديث عن سلعتين كمثال للسلع التي يتم تبادلها بين الدول وهما التبغ والأقمشة، وكان لهما وقت تأليف الكتاب قبيل منتصف القرن العشرين نصيب كبير من التجارة العالمية، كما تعرض بسلاسة ويسر لعدد من المصطلحات المرتبطة بالتجارة مثل التصدير والاستيراد والكساد والتكلفة، إلى آخر مثل هذه المصطلحات المتخصصة.

وينتهي الكتاب بفصلين مهمين هما الخامس ويتناول النقود كأداة للتجارة الدولية، أما الفصل السادس والأخير فقد خصصته صاحبة الكتاب للحديث عن مشاكل ومعوقات التجارة الدولية.

يعتبر التبادل التجاري بين دول العالم قديمًا قدم التاريخ الإنساني نفسه وقد اختلف الاقتصاديون في تفسير القواعد التي تحكمه، فالبعض ومنهم الاقتصادي الانجليزي الرائد آدم سميث يرى أن التجارة الخارجية ما هي إلا امتداد للتجارة الداخلية، حيث أن كل منهما يُمثل وسيلة للتخلص من الإنتاج الفائض ومقايضته بإنتاج آخر، وكلاهما أيضًا يعمل على التغلب على ضيق السوق عن طريق إتاحة الفرصة لتطبيق مبدأ تقسيم العمل والتخصص ورفع الإنتاجية ،كذلك لا تزال المدرسة الحديثة للتجارة الخارجية أو ما يُسمى بالمدرسة السويدية ترى عدم التفرقة بين التجارة الخارجية والتجارة الداخلية على أساس ان لكل منهما ظواهر اقتصادية واحدة، بينما يفسر فريق آخر من الاقتصاديين قيام التجارة الدولية، ومن هؤلاء "ديفيد ريكاردو" القائل بالتفرقة بينهما على أساس صعوبة انتقال عناصر الإنتاج من دولة إلى أُخرى، كما أن البعض يميل إلى فصل التجارة الخارجية عن الداخلية مُعتمدًا على أساس تاريخي وهو أن علوم الاقتصاد والإحصاء بدأت أولًا فيما يخص الجمارك من صادرات ووارادت، فالأصول التاريخية لعلم الاقتصاد بدأت في

الموانئ والجمارك، ولذا يجب الفصل في الدراسة الاقتصادية بين التجارة الداخلية والخارجية. وبصفة عامة فإن هناك من الاعتبارات ما يكشف عن اختلاف العلاقات الاقتصادية الدولية عن العلاقات الاقتصادية الداخلية ويبرر بالتالي استقلال التجارة الدولية كفرع من فروع الدراسات الاقتصادية.

هذا ويقوم التبادل التجاري الدولي أساسًا على مبدأ التخصص، حيث تتخصص كل دولة في إنتاج سلعة أو مجموعة معينة من السلع وتبادلها مع غيرها من الدول، فالتخصص يؤدي إلى زيادة الإنتاج ومن ثم تتمكن كل دولة من إنتاج السلع المتخصصة في إنتاجها بكميات أكبر من الحاجات الاستهلاكية لشعبها، كما تترك إنتاج السلع التي لا تستطيع أن تتميز في إنتاجها للدول الأخرى ذات التخصص، ويتم التبادل بين هذه الدول على أساس تخصص كل منهما، ومن ثم فالتخصص بين الدول هو الأساس اللازم لقيام التبادل التجاري.

أما المبدأ الثاني المهم فهو مبدأ الندرة، وهو الداعي إلى التخصص، حيث أنه لا توجد دولة تمتلك كل الموارد بالوفرة اللازمة لإنتاج كل السلع والخدمات لسد الحاجة المحلية للشعب.

ولولا مبدأي الندرة والتخصص لما نشأت التجارة الدولية أصلًا، فمثلًا دول الخليج العربي تمتلك رأس المال والبترول الخام ولكن ينقصها العمالة المدربة، والتكنولوجيا والعوامل الطبيعية التي تحول دون الاكتفاء الذاتي الزراعي..كذلك اليابان التي تمتلك التكنولوجيا ورأس المال والعمالة المدربة لكن تنقصها الموارد النفطية حيث تستورد ٩٩% من حاجاتها من الطاقة النفطية.

أما الولايات المتحدة الأمريكية، وهي الدولة الوحيدة التي تمتلك عناصر الإنتاج بوفرة ولكنها تعاني من مشكلة ارتفاع أجور العمال وتكاليف المعيشة مما يرفع من تكاليف الإنتاج ويقلل من التصدير، وهذا كله معناه أن تركز كل دولة وتخصص الموارد المتاحة عندها لإنتاج صناعة أو زراعة معينة حيث تتبادل هذه السلعة مع دول أخرى تنتج سلع أخرى.

بعد أن قدمت الكاتبة الأمثلة الوافية والشارحة للمفاهيم المرتبطة بالتجارة الدولية، وذلك عبر النصف الأول من الكتاب نجدها تقول في مطلع الفصل الرابع "رأينا الآن طريقتي عمل التجارة الدولية: رأينا كيف أن الأشياء التي يزرعها أقوام ويصنعونها يُمكن بيعها أو تصديرها إلى أقوام آخرين يعيشون في الخارج، ورأينا كيف أن الأشياء التي يريدها ناس يُمكن شراؤها أو استيرادها من ناس غيرهم يعيشون في الخارج أيضا".

قدمت ببساطة تعريفًا للصادرات والواردات باعتبارهما دعامتى التجارة الدولية، أو وجهي عملتها، فتقول "حين ترسل الأشياء من بلد ما لتباع في الخارج تسمى صادرات، وأنه حين تشترى الأشياء من أناس في الخارج تسمى واردات، وفي كل عام تصدر سلع كثيرة من كل بلد، وتستورد إليه سلع كثيرة، وتؤلف الواردات والصادرات معًا التجارة الدولية للبلد".

وتضيف في موضع آخر "يصدر كل بلد الأشياء التي يستطيع إجادة إنتاجها ويستورد الأشياء التي يتعذر عليه صنعها"، وتحدد الهدف من ذلك بقولها " وبتصدير الأشياء التي يحسن البلد زراعتها أو صنعها يحصل على مال كاف لاستيراد الأشياء التي يعجز عن صنعها لنفسه".

ويتوقف مقدار ما يستطيع بلد شراءه من الخارج على مقدار ما يستطيع بيعه. ولو كانت واردات بلد أكثر مما يستطيع الوفاء بثمنه، أي لو أن وارداته زادت على صادراته لكان مدينا لبلد آخر. وسيجد، عاجلا أو آجلا، أنه يدفع مقابل وارداته مالا أكثر من قيمته النقدية؛ لأن عليه أن يدفع أيضا فوائد الدين. وربما وجد كذلك أن البلد الذي يدينه سيتوقف عن إرسال أي سلع أخرى إليه إلى أن يسدد دينه.

وهكذا نرى البلد الذي لا يصدر صادرات تكفي السداد ثمن وارداته إما أن يستدين، أو يجد نفسه عاجزا عن الحصول على كل الواردات التي يريدها. وتوضح المؤلفة أن البلاد كالأفراد ينبغي أن تبذل الجهد في إنتاج ما تحسن، إن أرادت الحصول على مال تشترى به ما تريد فالبلاد عبارة عن مجموعات من الأفراد.

لجأت الدول الاستعمارية منذ مطلع القرن التاسع عشر إلى تعميق التقسيم الدولي للعمل القائم على تخصيص المستعمرات بإنتاج المواد الخام الزراعية والمعدنية ومستهلك للسلع المصنعة، واستخدمت من أجل ذلك إجراءات قاسية للقضاء على محاولات التصنيع في المستعمرات التابعة لها لمنعها من تحقيق التطور الاقتصادي والاجتماعي، وبعد أن حصلت المستعمرات على استقلالها بعد الحرب العالمية الثانية شددت الدول المتقدمة من إجراءاتها تجاه الدول النامية فاعتمدت مبدأ "حرية التجارة الدولية" ومبدأ "التفوق النسبي في تكاليف الإنتاج" مما أثر على دور الدول النامية كحلقات لإنتاج الخامات الزراعية والمعدنية تابعة للشركات الاحتكارية الدولية. كما اعتمدت الدول المتقدمة سياسة الحماية الجمركية في وجه المنتجات الزراعية والصناعية المصدرة من الدول النامية، حيث شكلت هذه الدول تكتلات اقتصادية للحد من المنافسة التجارية فيما بينها، ووحدت سياساتها التجارية تجاه الدول

النامية وأخذت تتبع سياسات تجارية عدائية تجاه صادرات البلدان النامية من السلع الجاهزة، بحيث تتناسب معدلات الرسوم المفروضة على الخامات المصدرة من الدول النامية طردًا مع درجة تصنيعها. وأدت النشاطات المتزايدة للشركات المتعددة الجنسية في أراضي الدول النامية إلى تهديد اقتصاديات هذه الدول، حيث تمتلك هذه الشركات أكثر من ٤٠% من الإنتاج الصناعي في الدول النامية وتسيطر على نصف تجارتها الخارجية.

تلك مستجدات طرأت بعد تأليف الكتاب الذي صدر قبل أن تتحرر أغلب هذه الدول التي تعرف بالنامية، لذلك فالكاتبة تتحدث في آخر فصول الكتاب عن الحرب وما تخلفه من كساد وتضخم وآثار ذلك كله على التجارة الدولية، لتنهي بذلك قصتها، وتقول "أهم درس يمكننا أن نتعلمه من هذه القصة هو أن أمرا واحدا يجعل قيام التجارة الدولية شيئا ميسورا، ألا وهو تعاون الناس على العمل معًا".

والكاتبة ترى في ختام كتابها أن تحقيق ذلك ممكن بل أمر لا بُد منه لرخاء الجميع.

جمال عمران

الفصل الأول

بداية القصة

لما كان موضوع هذا الكتاب هو التجارة الدولية، ينبغى علينا البدء بأن نتأكد من فهمنا معنى التجارة الدولية فلفظ «التجارة» يعنى البيع والشراء طبعا، فالتاجر هو شخص يعيش من شراء البضائع، أي الأشياء التي يريدها الناس، وبيعها. وصفة الدولية معناها «بين أمتين أو عدة أمم». فالتجارة الدولية إذن هي عمليات البيع والشراء التي تتم بين أقوام من بلاد مختلفة. حين يشتري أهل دولة ما من أهل دولة أخرى أو يبيعون لهم، فإنهم يسهمون بقسط في التجارة الدولية.

وسأتكلم في هذا الكتيب عن الطريقة التي بها يتم البيع والشراء بين رجال ونساء من دول مختلفة. وسنرى أنه لا قيمة للمسافات أو الفروق بين الناس؛ فبوسع بعضهم أن يشتري من البعض الآخر، أو أن يبيع له، إذا عاون سكان الأماكن المتوسطة الواقعة بين موطني الطرفين في نقل الأشياء التي يرغب ناس في شرائها أو مبادلتها بأشياء يرغب ناس آخرون في بيعا.

هذه قصة الكيفية التي بها تربط الأعمال والحاجات بين البشر في كل أنحاء العالم. إن بعضهم لا يعرف البعض الآخر، فلم يسبق للكثيرين منهم الخروج من وطنهم بحيث يرى بعضهم مواطن البعض الآخر، وفي أكثر الأحوال لا يستطيع بعضهم التحدث بلغة البعض الآخر؛ فهم بشر من أجناس متفرقة، وجنسيات متباينة، واديان مختلفة. لكن يساعد بعضهم البعض بسبب مساهمتهم في التجارة الدولية، ويعتمد بعضهم على البعض الآخر كما لو كانوا جيرانا.

لا يهم في رواية القصة من أين نبدأ. فبوسعنا أن نبدأها من أي مكان في العالم، وبوسعنا الوقوف بها في أي مكان آخر؛ لأنها قصة مستمرة في كل مكان وزمان. لكن نظرا لأنه لا بد أن نبدأها من مكان ما، فلنبدأها من إفريقية، من قرية صغيرة اسمها نتاكا تبعد أربعين ميلًا عن زمبا عاصمة نياسالاند، وفي عام ١٩٤٨، حصد مزارع إفريقي اسمه جيمس أول محصول له من التبغ. وكان قد جاء إلى القرية في ١٩٤٧، وتزوج منها وحصل على قطعة أرض فيها ليزرعها، وقرر أن يستغل جزءا منها في إنتاج التبغ لأنه يستطيع بذلك الحصول على المال، وكل رجل متزوج في حاجة إلى المال؛ لأن زوجته تطلب دائما المزيد من جديد الثياب!

بعد أن قطف جيمس أوراق التبغ بخرها بتعليقها فوق النار، وعرف اللحظة المناسبة التي أصبحت فيها صالحة للاستعمال؛ لأنه نشأ في قرية ينتج كل أفرادها التبغ، ثم نحى جانبا الأوراق القليلة التي تبين له ضعفها وجفافها لعلمه أن المشتري لن يجزيه عنها ثمنا طيبا في سوق التبغ؛ وهو مع ذلك لن يفرط فيها، بل سيدخنها بنفسه أو يشترك في تدخينها مع أصدقائه وهم جلوس حول النار في القرية وحزم الأوراق الجيدة، ثم أوثقها إلى دراجته التي اشتراها من المكافأة التي صرفت له عند تسريحه من الجيش.

تأهب جيمس الآن للذهاب إلى مركز الشراء الواقع على بعد عدة أميال بالطريق المؤدي إلى زمبا. ولما كان بعض أصدقائه قاصدين السوق في ذلك اليوم فقد جلس ينتظرهم معتمدة بظهره على حائط كوخه، بينما راحت زوجته تصف له نوع القماش الذي أرادت أن يأتيها به من المخزن المجاور لمركز الشراء. كانت تريد قماشًا أحمر اللون تنتشر فيه بقع بيضاء مثل ذلك القماش الأنيق الجديد الذي كانت جارتها زوجة يوسف ترتديه. ولكن جيمس كان قد استقر رأيه فعلا، على أن يشتري لها قماشًا يتحمل طويلا ولا يتكلف كثيرة، ولذلك لم يلق باله جيدًا لما تقول، وجلس في هدوء تحت أشعة شمس الصباح الباكر مترقبا مجيء أصحابه. وسرعان ما تجهزوا جميعا وساروا بدراجاتهم معا في الطريق المؤدي إلى سوق

التبغ، مارين بكثيرين غيرهم يقطعون المسافة على الأقدام وسلال التبغ تعلو رؤوسهم.

وكانت سوق التبغ مكانا حافلا بالحركة، كان قد بلغه قبل جيمس ورفاقه كثير من باعة التبغ، كما كان كثيرون ما يزالون يتوافدون إليه. وازدحمت السوق لا بالقادمين لبيع التبغ فحسب، بل من قدموا ليبيعوا الباعة التبغ سلعة أخرى كذلك. فكان منهم نساء وأطفال معهم سلال البندق والفشار وأطعمة أخرى يبيعونها لمن أحس بالجوع. وكان في السوق جوسق (كشك) بوسع المرء أن يشتري منه قدح شاى محلى بالسكر مع فطيرة صغيرة. وعلى مبعدة من الطريق قامت مجموعة من الحوانيت الهندية، جلس أمام كل منها عامل إفريقي يعمل على آلة خياطة، وتجمع حول كل منها عدد صغير من الناس لتبادل الحديث أو لمشاهدة ما كان معروضا بها للبيع.

اتكأ جيمس لحظة على دراجته، و تبادل الأخبار مع من لقيه من أصدقائه القدامى. كان بعضهم معه في الجيش ولم يرهم منذ سرح، ونشأ بعضهم معه في نفس القرية القريبة من مركز الشراء، وتحولوا عنها كما فعل هو حين اتخذوا زوجات من قرى أخرى. تحدثوا عن الأماكن التي عاشوا فيها منذ اجتمعوا لآخر مرة، وعن أصدقائهم القدامى. ثم بدأوا يقارنون بين محاصيلهم من التبغ،

وتناقشوا في الثمن الذي كان مالك الضيعة الأوربي المقيم على امتداد الطريق يعرضه على الإفريقيين مقابل تبوغهم. قال البعض إن الثمن كان أفضل من الأثمان التي يعرضها مجلس التبغ ، وقال آخرون إنه ثمن حسن لمن كانت تبوغهم رديئة الأوراق، وليست مجزية لذوي التبوغ الجيدة. أصغى جيمس إلى هذا كله باهتمام بالغ، ولو على أنه يستطيع الحصول على ثمن أعلى بالذهاب بتبغه إلى الضيعة لفعل، لكنه تأكد من كل ما قيل حول الموضوع – أن ثمن أوراقه هناك لن يكون أفضل بالمرة من الثمن الذي يعرضه المجلس، وكان أمله أن تكون أوراقه كلها من الدرجة الأولى، فتباع بأعلى سعر يعرضه المجلس.

أصبح الجو حارًا، وانتظم جيمس في صف الرجال المنتظرين دورهم على باب مخزن التبغ ليبيعوا تبوغهم. فلما تقدم إلى داخله ألقى أحد موظفي المجلس الإفريقيين نظرة على حزمته ليتأكد من سلامة الأوراق وجفافها. فلما اقتنع بذلك سمح له بالانتقال إلى موظف آخر مختص بتقدير درجات التبوغ و تثمين الرطل من كل منها– فلكل درجة من التبوغ سعر خاص – ولصق بطاقة على حزمة جيمس، ثم وزنها ثالث ورفع صوته معلنا الوزن ليقيده الكاتب. وكانت هذه آخر لحظة رأى فيها جيمس حزمته، فقد أخذوها منه وألقوا بها على الأرض مع حزم أخرى كثيرة من نفس الدرجة، وسلموا

جيمس بطاقة سجل عليها وزن حزمته ونوعها، فذهب بها إلى الصراف ليحصل على نقوده. وحين انصرف عنه كان في جيبه ثلاثة وأربعون شلنًا.

لم يصل هذا المبلغ إلى القدر الذي كان جيمس يأمل الحصول عليه، وكثيرا ما يجد المرء أن الأشياء التي يريد بيعها لا تبدو في عين من يرغب في شرائها بالجودة التي يقدرها هو. ورغم أن جيمس عني بتبغه عناية بالغة، فإن موظفي المركز تبينوا أن كل أوراقه لم تكن من تبغ الدرجة الأولى. ومع ذلك فقد سره أن يمتلك ثلاثة وأربعين شلنا، ولو لم يكن القماش في المتجر باهظ الثمن لاستطاع شراء ما أراد ولبقي معه مال كاف لوفاء الضريبة.

بدأ جولته الثانية بشراء قدح من الشاى و فطيرة صغيرة، وكان للرجل الواقف في جوسق الشاي – وهو من أصحابه القدامى – حانوت خشي في سوق التبغ من سنوات طويلة، وجد جيمس عنده جماعة من العملاء ولقيه باسما منشرح الصدر، ومع ذلك كان بوسع جيمس أن يعود بذاكرته إلى وقت مضى ندر فيه مجيء العملاء إلى الحانوت الخشبي وخسر صاحبة الجلد والعظم وحل به الفقر. كان جيمس ما يزال طفلا في تلك الأيام، وجاء مع أبيه ليبيع التبغ فوجد السوق مكتظة بتجار التبغ الإفريقيين الذين لم يستطيعوا أن يبيعوا غير أجود أوراقهم وبثمن بخس. وعلل المشترون هبوط الأثمان

بقولهم: إن المقبلين على تدخين تبغ نياسالاند كانوا قليلين. كانت تلك سنوات عجافا، إذ كانت ندرة من الإفريقيين تملك من المال ما يكفي لشراء ملابسهم. بل أضطر الأوربيون أصحاب الضياع إلى إغلاق المزارع ومراكز الشراء التي كانوا يملكونها، وإلى مغادرة نياسالند لعدم استطاعتهم بيع كمية من التبوغ تسد أثمانها حاجاتهم من الغذاء والكساء.

ولكن شتان بين حال تلك السنين وحال اليوم، حين أتى جيمس بمحصوله هو، فبوسع المرء بيع كل ما يمكنه إنتاجه من التبغ، بل إن أردأ الأوراق الآن تباع بثمن ما. وبوسع صاحب الحانوت الخشبي أن يبيع كل ما عنده من الشاي والكعك، الآن بائعي التبغ قد حصلوا ببيع تبوغهم مالا، وكل من معه سلة صغيرة من البندق أو غيره أو من السمك المجفف، يستطيع بيع بضاعته في السوق والعودة بسلته فارغة إلى قريته في آخر النهار. وإن لم يشأ امرؤ أن يجهد نفسه في إنتاج تبغ لنفسه، فبوسعه الخروج للعمل شهرين أو ثلاثة والحصول على أجر نقدى معاونة منتجي التبوغ الأوربيين في حصد محاصيلهم أو تقسيمها حسب درجاتها أو حزمها. وأي امرئ يقوى على العمل يمكنه الحصول على المال.

وعجز جيمس عن فهم السبب في عدم دوام هذا الرخاء. فالرجل الراغب في العمل يجب تمكينه من الحصول على المال، ومنتج التبوغ الجيدة يجب حصوله على من طيب لها. وإلا فكيف ينتظر منه أن يؤدي ضرائبه أو يشتري الكسوة لنفسه ولأسرته؟ وحينما دلف إلى المتجر الهندي ليشتري قماشًا لزوجته بدا له أن هناك أمورًا خاطئة. لم كان الثمن باهظا بهذا الشكل؟ إن الباردة من نفس القماش الذي كان أبوه يشتريه لأمه بشلن و ثلث شلن يبلغ ثمنها الآن ثلاثة شلنات. والآن وقد توافر للرجال المال الذي يمكنهم من الشراء، كانت أثمان سلع المتجر غالية بحيث ظل الرجال عاجزين عن شراء كل الأشياء التي كانوا يرغبون فيها. وحين شكا جيمس من ارتفاع ثمن القماش غضب الهندي صاحب المتجر وقال: إن هذا الثمن هو الثمن الذي حددته الحكومة، وأنه إذا لم يشتره جيمس فسيشتريه غيره. ولذا خرج جيمس من المتجر بقماش أزرق متين و بلوزة لزوجته، و بقميص وبنطلون كاكيين لنفسه، ولم يبق في جيبه سوى شلنين وثلاثة أرباع الشلن. وعليه لسداد الضريبة أن يبيع العنز الذي يربيه أو يعمل أجيرة لمدة شهر. وبينما هو يشد مشترياته إلى الدراجة حدث نفسه بزراعة التبغ في حديقة أكبر، وتصور مدى غناه لو لم تكن أثمان سلع المتجر عالية بهذا القدر.

الفصل الثاني

تصدير التبغ

انتهى عمل اليوم بالنسبة لجيمس عندما حرك دراجته عائدة إلى "نتاكا" مع أصدقائه، لكن بالنسبة لتبغه كانت القصة قد بدأت فحسب.

في مخازن التبوغ، حيث تركه، رتبه و صنفه عمال إفريقيون نشطون، وحزم حزمات كبيرة محكمة مع التبوغ الأخرى التي اشتراها المركز، ثم حملت إلى سيارات نقل مركز التبغ. وقبل أن تغادر المركز كانت قد تداولتها أزواج عدة من الأيدي، ودفع المركز نقودا لجميع الأفراد الذين عاونوا في نقلها من المخزن وهم: المشترون، المصنفون، الحازمون، الحمالون، سائق السيارة وزميله.

نقل التبغ بالسيارة حتى لمبه،وهي مدينة يقيم فيها كثير من التجار، وخاصة أولئك الذين يشترون البضائع ويبيعونها الشركات الأجنبية. وهناك بيع أفضل قدر من تبغ جيمس إلى وكيل شركة تبغ في جنوب إفريقية أراد إخراجه من نياسالند. وحين باع مندوب مجلس التبوغ تبغ جيمس طلب مقابله تمنا أعلى مما أخذه جيمس، وذلك لأنه كان على المجلس أن يدفع الكثير من الأفراد أجور

معاونته على شراء التبغ و نقله إلى (لمبه). فلم يكن عليه أن يسدد نفقات إنتاج التبغ فحسب، بل كان عليه أيضا أن يؤدي أجور الأفراد الذين تداولوا التبغ، وهم الرجال الذين اشتروه، ووزنوه، وصنفوه، وحزموه، وحملوه إلى السيارة، والرجال الذين فرغوه منها إلى المخزن في لمبه. وكان على المجلس أن يدفع أيضا أجور الأشخاص الذين أشرفوا على مركز الشراء، والذين دبروا شراء تبغ جيمس و نقله إلى لمبه وبيعه إلى شركة التبغ، والأفراد الذين كانوا يعملون في مكاتب المركز ويكتبون بالآلة قوائم حساباته ورسائله، والرجال الذين كانوا يقودون سياراته، والخدم الذين كانوا يعنون مخازنه و بمبانيه والذين يتولون تنظيفها. بل إنه قبل أن يتمكن مركز التبغ من مجرد إقامة مركز شراء كان عليه أن يأجر أفرادا عن إقامة مخازنه ومبانيه:: كان عليه أن يشتري سيارات النقل التي كانت تحمل التبغ، وأن يشترى وقود السيارات من البترول.

وبشراء التبغ وجب على المركز سداد كل هذه النفقات، فقد كانت هي "كلفة الإنتاج" ولو كان جيمس قد دفع أجرة لشخص ما ليعاونه في زراعة التبغ لكان أجراهما نفقة إنتاجه، ولوجب عليه طرح أجريهما من الثلاثة والأربعين شلنا إن أراد حساب ما حصل عليه مقابل تبغه. وحين باع مندوب الشركة التبغ في لمبه حدد ثمنا يكفي لتغطية كل نفقة الإنتاج التي تحملتها الشركة، بجانب المبلغ المدفوع

لجيمس. كذلك تكلف محصول جيمس بعض شلنات زيادة على ما سبق حين شحن مندوب شركة جنوب إفريقية التبغ في القطار المسافر من لمبه.

بدأ التبغ، الذي أصبح الآن ملكا لشركة جنوب إفريقية، رحلته الطويلة بالقطار عبر حدود نياسالند مخترقا جزءا من إفريقية الشرقية البرتغالية، ثم عبر روديسيا الجنوبية إلى جنوب إفريقية، إلى أن بلغ المدينة التي يقوم فيها مصنع شركة التبغ. وهناك أخرجه من القطار عمال جنوب إفريقية، ثم حمل في سيارة نقل أخرى إلى مصنع الشركة.

بهذه الصورة صدر تبغ جيمس من نياسالند. والصادر هو شيء يؤخذ خارج البلاد للبيع. وتسمى الشركة التي تشترى السلع لتأخذها و تبيعها في الخارج شركة تصدير وعليها – إذ تفعل ذلك – أن تستعين بأفراد آخرين، وأن تدفع لهم مالا مقابل مساعدتهم. وعليها أن تدفع كذلك لشركات السكك الحديدية في نياسالند وإفريقية البرتغالية الشرقية وروديسيا الجنوبية وجنوب إفريقية أجور نقل التبغ، وعليها كذلك أن تنقد العال لينقلوه من المحطة إلى المصنع.

كان المصنع مبنى كبير، فيه آلات ضخمة عديدة، وكثير من عمال جنوب إفريقية التشغيل الآلات والنقل التبغ من آلة إلى أخرى. ولما كان الأشخاص الذين يدخنون تبغ نياسالند يفضلونه مخلوطا

بـأنواع أخـرى مـن التبـغ، فقـد وضـعت الأوراق فـي آلات تقطعهـا وتمزجها بتبـوغ بـلاد أخرى هـي: روديسـيا الجنوبيـة، واتحـاد جنـوب إفريقيـا. فلمـا تـم خلـط التبـوغ، وأصـبحت صـالحة للتـدخين عبأتهـا آلات أخـرى فـي علـب صـغيرة علـى كـل منهـا أغطيـة تحمـل اسـم الشركة. ثـم وضعت العلب الصغيرة في صناديق كبيرة وأصبح التبغ معدة لمغادرة المصنع.

ومرة أخرى تداولت تبغ جيمس أياد كثيرة، نقلته من مكان. إلى آخر وحولتـه مـن حـال إلى حـال، وجعلتـه أكثـر قيمـة. ومـرة أخـرى وجبت إقامة مبان، وشراء آلات ودفع أجور لأشخاص كثيرين لتحويل التبغ، الذي ينتجه أناس مثل جيمس، إلى نوع يقبل على شرائه أناس آخرون لتدخينـه فـي غلايينهم. ويسـمى تحويـل الأشـياء التـي ينتجهـا أنـاس إلـى أشـياء يسـتعملها أنـاس آخـرون بالصـناعة التحويلية.وقـد حولـت الشـركة أوراق تبـغ جـيمس بتغييرهـا إلـى تبـغ الغليـون، ومـرة أخرى زادت كلفته شلنات كثيرة وأصبحت معدة للتدخين، لكنها غير معدة للبيع.

وقبل أن يتجهز التبغ لمفارقة مصنعه، كتبت الشركة إلى شركة في انجلترا عارضـة أن تبيعهـا التبـغ بـثمن يكفـي لسـداد كـل نفقـات شـرائه و نقلـه وصـنعه. فوافقـت الشـركة الإنجليزيـة علـى شـراء التبـغ بهـذا الثمن، مشـترطة أن تضعه شـركة جنـوب إفريقيـة علـى سـفينة فـي

ميناء كيب تاون قبل نهاية أكتوبر. وحالما أعدت صناديق علب التبغ نقلتها الشركة بسيارة النقل من المصنع إلى المحطة و حملتها على قطار ذاهب إلى كيب تاون. وهكذا بينما كان جيمس يقوم بزرع محصوله التالي من التبغ في نياسالند، كان محصوله الأول في طريقه إلى كيب تاون بالقطار.

وفي كيب تاون أفرغ عدد آخر من عمال جنوب إفريقية صناديق التبغ على أرصفة الميناء. وكانت السفن في انتظارها، لكن العمال لم ينقلوها واحدة واحدة؛ بل ملأوا شبكة كبيرة بالصناديق جميعا، ثم ثبت أحد العمال الحمل بخطاف آلة رافعة ضخمة (ونش) كان يديرها عامل آخر، فظل يرتفع بسهولة في الفضاء حتى تأرجح فوق الباخرة، ثم انخفض إلى مكان في وسطها، وفتح عمال آخرون الشبكة، وأخرجوا الصناديق وصفوها بعناية ونظام داخل الباخرة.

كان مندوب الشركة على الرصيف، يرقب التبغ وهو يرفع إلى ظهر السفينة، وتسلم من قائدها إيصالا موقعا عليه منه يقول فيه إن التبغ صار الآن على السفينة. فأرسل هذا الإيصال إلى الشركة في إنجلترا مخبرا إياها بوقت إبحار السفينة وميعاد وصولها، فلما تسلمت الشركة الانجليزية الإيصال دفعت ثمن التبغ مرسلة النقود

بوساطة مصرفها إلى مصرف شركة جنوب إفريقية، كما دفعت الشركة النقل البحري التي تنقل التبغ فوق سفينتها إلى انجلترا.

بعد ثلاثة أسابيع وصل التبغ إلى ميناء لندن. وكان قد تكلف الآن أضعاف المبلغ الذي حصل عليه جيمس ثمنا له في مركز الشراء. فقد نقله أشخاص كثيرون، وحولوه، وحزموه، وحملوه في أجزاء كثيرة من إفريقية. واستوفى أصحاب سيارات النقل وشركات السكك الحديدية وشركات النقل البحري أجورهم عن حمله. كما استوفت شركات التأمين ثمن الوعد بتعويض أصحاب التبغ إن ضاع أو تلف. وأخذت سلطات الميناء أجور خزنه في مخازنها، وأجور العمال الذين حملوه إلى ظهر السفينة وإنزاله من فوق ظهرها معونة آلاتهم الرافعة. وكلما ساعد فرد في نقل التبغ أو تغييره أو حزمه أو الإشراف عليه وهو في طريقه، كان الأجر الذي يستوفيه مقابل معونته يضاف إلى ثمن التبغ. وحين بلغ التبغ لندن كان ثمنه يشمل قيمة كل جهد بذل في إنباته وصنعه والإتيان به إلى لندن من "نتاكا".

وفي ميناء لندن رفع خارج السفينة، ونقل إلى قطار آخر وأخذ إلى مخازن للشركة الإنجليزية، وأصبح الآن يسمى " واردا " ولتتذكر أننا سميناه "صادرا" حين ترك نياسالند ؛ فالصادر هو شيء ينقل إلى الخارج ليباع لقوم يعيشون في بلد آخر، والوارد شيء مجلوب من قوم يعيشون خارج بلد المرء. وقد كان تبغ جيمس كلا الشيئين معا ؛

كان صادرة بالنسبة إلى نياسالند لأنه بيع بوساطة أهل نياسالند لقوم خارجها، وكان واردة بالنسبة إلى انجلترا لأن أناسا من الإنجليز اشتروه من أناس خارج انجلترا. وقد صدر ته من نياسالند شركة تصدر واستوردته إلى انجلترا شركة استيراد وتحصل الحكومة البريطانية ضريبة أو رسما على كل تبغ يباع في انجلترا. ولذلك عاين التبغ موظفو مصلحة الجمارك الذين يحصلون الضريبة، وحددوا المبلغ الواجب دفعه عنه، قبل أن يسمح للشركة المستوردة بيعه، بل قبل أن يسمح لها بإخراجه من مخازنها في منطقة الجمرك، ثم أضيف الرسم إلى الثمن مثلما أضيفت إليه جميع النفقات الأخرى من قبل.

فلما تم ذلك ودفع الرسم، وضع عمال إنجليز الصناديق المحتوية على علب تبغ الغليون على سيارة أخرى نقلته وسط شوارع لندن المزدحمة إلى حانوت صغير على ناصية شارع كبير. وكان صاحب المحل – واسمه جون سمث – قد اشتراه الآن من مدير شركة الاستيراد. فأخذه إلى داخل حانوته، ووضع بعضه على رفوفه والبعض الآخر في نافذة العرض (الفترينة) لجذب الناس إلى دخول المحل لشراء التبغ.

كان اليوم أحد أيام ديسمبر الباردة في انجلترا. وكانت الشمس منخفضة في الأفق ؛ فهي لا ترتفع أبدا في فصل الشتاء، وكانت أشعتها تحاول اختراق ضباب الصباح. وكان جون سمث قد أحاط حانوته وزين نافذة عرضه بزينة عيد الميلاد؛ أي بأوراق شجر خضراء، ونماذج كرز حمراء وبأوراق ملونة. وبينما كان جيمس مستقرا في كوخه ينتظر هطول الأمطار الغزيرة لرى محصوله الثاني من التبغ، كان تبغه مرتبا في صف من أهرام العلب اللطيفة الشكل في « فترينة، حانوت جون سمث وعلى رفوف متجره.

الآن أصبحت قيمة الأوقية من التبغ الذي قام بهذه الأسفار الطويلة وحل في أماكن كثيرة، ثلاثة شلنات وثلثي شلن، ولو علم جيمس أن قيمة تبغه ستصل إلى هذا الحد لتملكته الدهشة. ولا عجب أن ظن كثير من الأشخاص المشتهين تدخينه ثمنه أغلى مما ينبغي، وانصرفوا محزونين دون شرائه: لكن كان هناك بعض من لا يمنعهم الفقر من شرائه، فبيع كله قبل حلول العيد. وقبيل العيد كان التبغ يدخن في غلايين أناس من الإنجليز وهم جالسون قرب المدافئ الانجليزية.

ولو استطاع جيمس أن يتتبع تبعه في رحلته الطويلة التي تجاوزت العشرة آلاف ميل فوق البر و بالقطار وفي البحر؛ لقل عجبه من أن ترتفع قيمة تبغه الذي باعه بشلن واحد للرطل إلى هذا

الحد لمن يدخنونه، ولعرف أن أناسا كثيرين في نياسالند وروديسيا الجنوبية وجنوب إفريقية وانجلترا كانوا يعيشون من نقل التبغ ومن صنعه.

ولما كان الثمن الذي يدفعه مدخنو التبغ هو مجموع أثمان إنتاجه وأجور الأشخاص الذين عاونوا في إنباته ونقله وصنعه ؛ فإن أي تغيير في الثمن أو الأجر تطالب به إحدى هذه الفئات من الأشخاص لابد أن يترتب عليه فرق في الثمن بالنسبة لجميع الطوائف الأخرى. افرض مثلا أن جيمس صمم على بيع تبعه بخمسة وأربعين شلنا، وأن كل إفريقي فعل مثله، وأفرض أن لجنة التبغ قد رفعت هذا الثمن، فلابد أن يحدث أحد أمرين: إما أن يضطر المدخنون إلى دفع شلن زيادة على ثمنه، وإما أن يضطر بعض الأشخاص الذين ساعدوا في نقله إلى انجلترا إلى النزول عن شلن من أجورهم. و بالطريقة ذاتها، لو أن شركة السكك الحديدية أو شركة النقل البحري طلبت أجورا أعلى لاضطر المدخنون إلى دفع ثمن أكثر أو لاضطر جيمس أو بعض الأشخاص الذين عاونوا في نقل التبغ أو صناعته إلى قبول مبلغ أقل.

والآن، لو أن ثمن التبغ حين وضع في « فترينة » جون سمث كان عالية جدا، لما استطاع المدخنون دفعه، ولاضطروا إلى شراء تبغ شخص آخر، أو إلى تقليل تدخينهم. وماذا كان يحدث لو لم يرغب أحد في شراء تبغ جيمس؟

على أي حال، لم يكن ليحدث شيء لجيمس هذا العام، فقد أخذ الثلاثة والأربعين شلنا وأنفقها، ولن يقدر أحد على أخذها منه. ولو أن جون سمث دفع ثمن تبغ جيمس ولم يستطع بيعه، وقدمت سيارة شركة الاستيراد الانجليزية مرة أخرى إلى متجره حمل من التبغ لما اشترى منه شيئا، لأن رفوفه لا تزال فعلا مثقلة بالتبغ، ولأعادت السيارة التبغ إلى مخازن الشركة فيظل فيها حتى يتم بيع المحصول الأول من تبغ جيمس، و يتيسر في متجر جون سميث موضع لمزيد من التبغ. لكن ما دامت مخازن شركة الاستيراد ملأى بالتبغ، فلن ترغب الشركة في شراء المزيد منه. وحين تعرض عليها شركة جنوب إفريقية شراء حمل من التبغ مرة أخرى فسوف يرفض العرض. وطالما وجدت شركة جنوب إفريقية تحت يدها تبغا لا تستطيع بيعه فسترفض شراء أي كمية جديدة منه، وهكذا تستمر الحلقة إلى أن يأتي جيمس إلى مركز الشراء بمحصوله الثاني من التبغ فتخبره لجنة التبغ أنها لا تريد شراء شيء منه مالم يقبل ثمنا أقل، أي ثمنا لا يزيد عما يستطيع دفعه المدخنون في انجلترا.

حدث شيء من هذا حين حجز والد جيمس عن بيع تبعه، والسبب لم يكن هو طلب والد جيمس ثمنا فاحشة، بل كان قلة ما لدي المدخنين من المال. فقد كان كثير من الأفراد متعطلين عن العمل في انجلترا، وكان ما بيدهم من المال لا يكاد يكفي لأكثر من شراء طعامهم، أي أنه كان – على وجه التأكيد – غير كاف لشراء التبغ، لذلك كانت رفوف صاحب المتجر ملأى بالتبغ الذي لم يمكن بيعه، وكانت مخازن الشركة التي جلبت التبغ إلى انجلترا ملأى بالتبغ غير المطلوب، فلم تكن راغبة في شراء المزيد فأقفل مصنع جنوب إفريقية أبوابه لأنه لم ير جدوى من إنتاج تبغ الغليون، ولم يستطع والد جيمس أن يبيع تبعه لمركز الشراء بثمن مجز.

ولو تساءلنا: لماذا تعطل ناس عن العمل في انجلترا؟ لوجدنا من بين الأسباب عدم قدرة المصانع التي كانوا يعملون لها على بيع سلعها في بلاد أخرى، لأن الناس افتقروا فيها هي أيضا.

وهكذا نرى أنه إذا افتقر الناس في بلد، عم الفقر الناس في جميع أنحاء العالم. ولو تلف محصول جيمس ورفاقه في نياسالند عاما، لزاد فقر الكثيرين في نياسالند وفي جنوب إفريقية وانجلترا، لأنه لن يمكنهم الحصول على أموال مقابل تصنيف تبغ نياسالند ونقله وصنعه وبيعه. ولو امتنع الرجال في انجلترا عن شراء التبغ

لأملق الكثيرون في إفريقية لأنهم لن يستطيعوا بيع التبغ الذي أنتجوه أو نقلوه أو صنعوه.

بوسعنا الآن أن نرى معنى التجارة الدولية بصورة أوضح: لقد اشترك جيمس في التجارة الدولية حين باع تبعه لكي يصدر من نياسالند، ويحول إلى تبغ غليون في جنوب إفريقية، ولكي تستورده انجلترا في النهاية لتدخينه. وقد استطاع أن يفعل هذا لأنه وجد بين بلده – حيث زرع التبغ – و بين لندن – حيث دخن – أفرادا كثيرين يقومون بحمله عبر إفريقية وعبر البحار، وبتحويله إلى النوع الذي يرغب أهل لندن في تدخينه. لكن طالما كان لابد من دفع أجور لكل هؤلاء الأفراد مقابل معاونتهم، فقد تكلف التبغ حين تدخينه مبلغا أكبر بكثير مما تسلمه جيمس ثمنا له حين باعه لأول مرة.

الفصل الثالث

استيراد القماش

لم نر للآن سوى جانب واحد من القصة، فيوم باع جيمس تبغه اشترك في التجارة الدولية بصورة أخرى هي شراء بعض القماش صحيح أنه باع تبغه لأنه أراد شراء أقمشة، فيمكننا أن نقول إنه استبدل قماشا بتبغه.

ويمكننا أن نفهم المزيد عن تلك العملية العظيمة، عملية التجارة الدولية، إذا عرفنا المكان الذي يأتي منه القماش الذي اشتراه جيمس لزوجته. إن العلامة الموضوعة على بالة القماش التي قص منها صاحب المتجر قطعة لجيمس مكتوب عليها (صنع في انجلترا) لكن لم تكن هذه هي بداية قصة القماش. فقد كان القماش مصنوعا من القطن، والقطن لم يزرع في انجلترا، ولا يزرعه الناس فيها لأن مناخها لا يناسبه. فأين نبت إذن؟

زرع القطن وأنبته زنجي أمريكي يعيش في الولايات المتحدة، من سلالة الأرقاء الإفريقيين الذين حملوا من ساحل غرب إفريقية منذ أكثر من مائتي عام.كان اسمه سليمان، وقد زرع مزرعة مساحتها عشرة فدادين في مسيسبي إحدى الولايات المتحدة الأمريكية.

كانت مزرعة سلمان ملكا لمزارع أمريكي اسمه وليم جونس، وكذلك كان بيته وآلاته الزراعية وماشيته ومقابل استغلال الأرض والبيت والماشية وعلف الماشية ونصف السماد المستخدم في إنماء المحاصيل، كان سليمان يعطى وليم جونس نصف محصول القطن الناتج من الأرض كل عام، ويحتفظ بالنصف الآخر لنفسه.

وفي صيف عام ١٩٤٦ حصد سليمان وزوجته وأكبر اثنين من أولاده القطن من مزرعته. ولما جمع القطن كان مملوءا بالبذور، فكومه سليمان على عربته بنظام، وعلق في العربة ثيرانه الأربعة وأخذ القطن إلى المحلج المحلى. وكان في المحلج زنوج آخرون، من سلالة الإفريقيين كسليمان، وضعوا محصول سليمان في الآلات وفصلت عن القطن البذور والأوشاب، وضغطته با لات وأعادته إلى سلمان. ولم يطلب صاحب المحلج مالا، بل احتفظ لنفسه معظم البذور التي عرف أنه يستطيع بيعها للأشخاص الراغبين في تحويلها إلى زيت و صابون و علف للماشية، ورد بعض البذور إلى سليمان حتى تتوافر له و التقاوي، الكافية لزرع المزرعة قطنا في العام التالي.

أعاد سليمان بعدئذ بالة القطن إلى المزرعة، وسلبها إلى وليم جونس لبيعها بدلا عنه. كان نصف البالة من حق ولم جونس، لأن المزرعة كانت مزرعته، والنصف الآخر من حق سليمان، لأنه هو الذي زرع القطن. وقد ذهب ولم جونس ببالة القطن إلى المدينة

وعرضها على وكيل شركة تصدير. وسوف تتذكر أن مركز تبغ نياسالند باع تبغ جيمس إلى شركة تصدير، وقد لاحظت أن شركة التصدير كانت شركة تأخذ السلع فترسلها خارج البلاد لبيعها هناك. فهذه الشركة إذن شركة تصدير أخرى تستثمر أموالها في شراء القطن من أمريكا وإرساله خارجها ليباع.

عاين مندوب الشركة بالة سليمان، فقطع فيها ثقبا وخص بعض القطن ليحدد رتبته. ثم ذكر السعر الذي يستطيع دفعه ثمنا لهذه الرتبة، ووزن البالة وعرض مقابلها على وليم مائتي دولار. أخذ وليم المائتي دولار، واحتفظ لنفسه بمائة منها كإيجار للمنزل والمزرعة والثيران والعربة، و مقابل المخصبات التي كان سليمان قد استخدمها، وأعطى المائة الأخرى لسليمان. فأصبح بوسع سليمان الآن أن يشتري رداء جديدة لزوجته وقمصانا وسراويل لنفسه ولولديه.

وستلاحظ أن سليمان أخذ المال دولارات لا جنيهات وشلنات، لأن النقد الذي يستخدمه الناس في الولايات المتحدة هو الدولارات والسنتات.

أرسل مندوب الشركة بالة القطن، مع بالات القطن الأخرى التي اشتراها، بسيارة نقل إلى محطة السكة الحديدية، وهناك حملت من السيارة إلى قطار بضاعة، وبدأت البالة رحلتها بالقطار متجهة جنوبا

إلى ميناء نيوأورليانز وهناك أفرغت الحمولة ووضعت في مخزن واسع على الأرصفة لتبقي فيه إلى أن تباع. وقد دفعت شركة التصدير لمندوبها أجرة عن شرائه القطن، ولشركة السكك الحديدية أجرة نقله، ولأصحاب المخزن أجرة عن تخزينه، كما دفعت لأناس آخرين أجورًا لكي يقدروا رتبته تقديرًا دقيقًا.

فلما تم تخزين القطن بأمان في المخزن، أبرقت شركة التصدير إلى ليفربول في انجلترا لتخبر التجار بأن لديها قطنا للبيع. وبعد قليل تلقت ردة من شركة استيراد قطن إنجليزية (أي شركة تشتري القطن من الخارج لتبيعه في انجلترا) محددة الثمن الذي كانت مستعدة أن تشتري به القطن. وكانت البالة قد تكلفت إلى الآن فعلا مبلغا أكبر بكثير من مائتي دولار، لأنه نقل مسافة طويلة وتداوله كثير من الناس.

بحثت شركة التصدير الثمن المعروض لقطنها، ورأته كافيا السداد كل نفقات زراعته وشرائه و تقله، فقبلت العرض بعد أن تأكدت تماما من أنه لم تكن هناك شركات أخرى تدفع فيه ثمنا أعلى. ويتبق أن نلاحظ هنا أن الشركة الإنجليزية قدمت عرضها مقوما بالدولارات، رغم أن الناس في انجلترا لا يشترون سلعهم بالدولارات بل بالجنيهات والشلنات، وسوف نتحدث نى فصل آخر عن الطريقة التي بها حصلت الشركة الانجليزية على الدولارات. وأيا

ما كان الأمر، ينبغي أن نتذكر الآن أن الطريقة الوحيدة التي بها كانت تستطيع شركة إنجليزية شراء سلع من شركة أمريكية هي عرض دولارات بدلا عنها، لأنه بالدولارات وحدها كان الأمريكيون أمثال وليم جونس أو سليمان يستطيعون شراء الأشياء التي يرغبون فيها من متاجره المحلية. وهم لا يريدون الجنيهات أو الشلنات، لأنه لا يمكن شراء شيء بها في أمريكا.

ذهب أحد مندوبي شركة التصدير بعد ذلك إلى شركات النقل البحري في نيو أورليانز، ليرى ما إذا كان الواحدة منها سفينة على وشك الإبحار تستطيع نقل قطن سليمان إلى انجلترا. و أخيرا عثر على سفينة في الميناء خمل القطن عليها. وكان على السفينة أن تذهب أولا إلى نيويورك لتأخذ حمولة أخرى ؛ فنقل قطن سليمان بحذاء ساحل الولايات المتحدة حتى نيويورك، ومنها ذهب عبر المحيط الأطلسي إلى ميناء ليفربول الإنجليزي. ولما كانت شركة النقل البحري أمريكية فقد طلبت هي الأخرى دفع أجرها بالدولارات، ووجب على الشركة الإنجليزية أن تدبر دولارات كافية لسداد نفقة نقل القطن عبر المحيط، ولسداد قيمته بالمثل في نيو أورليانز.

حين غادر قطن سليمان نيو أورليانز كان د صادرة من الولايات المتحدة، لأنه بيع لأناس يقيمون خارج الولايات المتحدة، فلما بلغ ليفر پول كان « واردة إلى انجلترا، لأنه اشترى من أناس يقيمون خارج انجلترا.

وبينما كان القطن مسافرا عبر المحيط، كانت مؤسسة الاستيراد قد أخذت تبحث فعلا عن عميل يشتريه. وقبل أن تصل الباخرة إلى ليفربول كانت قد اشترته مؤسسة غزل في أولدهام ؛ ولذلك وضع في قطار ذاهب إلى أولدهام حالما أخرج من السفينة. وفي محطة أولدهام حمل على سيارة نقل إلى منزل.. وهناك، في مصنع كبير يضم كثيرا من آلات الغزل، غزلته فتيات مغزل لانكشير خيوطا. فلما أتمت الفتيات صنع الخيوط، كان ثمنها يشمل جزءا من أجورهن، ومن ثمن الفحم والزيت اللازم لإدارة آلات مؤسسة الغزل، ومن مرتبات مديرها وغيره من الموظفين. كما شمل الثمن جزءا من قيمة مبنى المؤسسة نفسه، وقدر الثمن الآن بالجنيهات والشلنات، لأن الناس في انجلترا يشتري بعضهم من البعض بالجنيهات لا بالدولارات، وكانت مؤسسة الغزل قد اشترت قطن سليمان من شركة الاستيراد بنقود انجليزية.

ثم باعت مؤسسة الغزل الخيوط إلى مؤسسة نسج، وكانت الرحلة التالية للقطن إلى منسج في مدينة أخرى من مدن لنكشير. وهناك نسج مقطعا من القماش على نول يديره نساج إنجليزي. وبينما كان جيمس يبدأ في زراعة أول محصول له من التبغ في نياسالند، كان القماش الذي سوف يشتريه لزوجته – بثمن ذلك التبغ – حديث النسج مستقرا فوق رفوف منسج في مدينة برستن في لنكشير.

حان الوقت للبحث عن شخص يشتري القطن المنسوج، فأرسل مدير مؤسسة النسج رسالة إلى مدير شركة تصدير في مانشستر يقول إن لديه قماشا للبيع، فرد مدير شركة التصدير عارضا شراء القماش لتصديره إلى إفريقية. لكنه قبل أن يرسله خارج انجلترا دبر أمر طبعه بنقشة زرقاء فاقعة كان يعرف أنها مرغوب فيها في إفريقية. فأرسل مقطع القماش الذي كان لونه رصاصيا فاتحا – إلى مؤسسة تبييض، بيضه عمالها بغمسه في ماء مزج بمادة كيمائية قوية فأصبح بعدها صالحا للصياغة. ثم أرسل إلى مؤسسة صباغة وطبع، حيث وضعه رجال ونساء في آلات طبعته بالنقشة الزرقاء التي أحبها جيمس وأمل أن تتحمل الاستعمال.

فلما تم كل هذا، أصبح القماش المصنوع صالحا للبيع للقوم الراغبين فيه، و أخذت شركة التصدير القماش التام الصنع إلى مخزنها في مانشستر. ومن هناك كتب المدير إلى شركة استيراد في إفريقية قائلا إن لديه قماشا أزرق للبيع. وكان القماش قد تداولته حتى الآن أيد عدة في أماكن كثيرة. ولو رآه سليمان لما عرف فيه القطن الذي جناه من أرضه والذي كان الآن يباع بأضعاف الثمن الذي أخذه مقابله. لقد أصبح الآن ما أراده جيمس تماما، لكن ثمنه كان أقل من الثمن الذي سوف يدفعه. فما زال أمام القماش أميال طويلة يجتازها فوق البر والبحر، بالسفينة وبالقطار و بالسيارة، قبل أن يصبح بإمكان جيمس أن يشتريه لزوجته. ولا بد أن يضاف إلى الثمن قيمة كل عمل سوف يؤديه الناس في حمله ونقله من مانشستر إلى نياسالند.

لما وافقت شركة استيراد في إفريقية على شراء القماش القطني بالثمن الذي رأت شركة التصدير أنه يفي بكل نفقات زراعته ونقله وصنعه، كان القماش معدا لمواصلة المرحلة التالية من رحلته. فأعيد بالقطار إلى ليفربول ووضع فوق سفينة متجهة إلى ميناء بيرا في إفريقية الشرقية البرتغالية. فسافر في هذه السفينة مجتازا البحر المتوسط وقناة السويس ومحاذيا الساحل الشرقي لإفريقية إلى أن بلغ بيرا.

وفي بيرا أفرغ عمال الميناء الإفريقيون، القماش، وأخذوه إلى القطار الذاهب إلى نياسالند. وبينما جيمس على وشك قطن تبعه كان القماش قد وصل إلى محطة لمبه، وكانت شركة الاستيراد تبيعه إلى صاحب المتجر الهندي القريب من مركز شراء التبغ.

حين دفع الهندي مالا مقابل القماش، كان عليه أن يدفع ثمنا عاليا يكفي لسداد ما لسليمان ووليم جونس، وشركة السكك الحديدية في أمريكا، وشركة التصدير في نيو أورليانز، وشركة النقل البحري في نيو أورليانز، وعمال الميناء في ليفربول، وشركات السكك الحديدية، والغزالين، والنساجين، والمبيضين، والصباغين، والطباعين، وشركة التصدير في انجلترا، وشركة النقل البحري التي نقلته إلى بيرا، وعمال الميناء في بيرا، وشركات السكك الحديدية بين بيرا ولمبه، وشركة الاستيراد. وحين حدد مراقب الأثمان الحكومي الثمن الرسمي للقماش الذي اشتراه جيمس، حسب كل هذه التكاليف وأضاف المبلغ الذي يجوز للهندي الحصول عليه بالإضافة إلى كل هذه التكاليف لينفقه على نفسه.

على أثر ذلك وضع صاحب المتجر الهندي القماش في سيارة نقل وقادها خارجة بها من البلدة إلى أن بلغ متجره. وهناك استقرت فوق رفوفه إلى أن كسب جيمس وغيره من العملاء الإفريقيين مالا كافية من مركز الشراء مكنهم من الحضور وشراء القماش لزوجاتهم.

كان من القماش – مثل ثمن تبغ جيمس – يشمل الأثمان والأجور التي دفعت للأشخاص الذين زرعوه، والذين نقلوه من مكان إلى آخر، والذين صنعوه. ولولم يستطع جيمس بيع تبعه، وجز بسبب ذلك عن شراء القماش، لكان محتملا أن يبقى على رفوف الهندي صاحب المتجر، ولرفض الهندي شراء قماش آخر من شركة الاستيراد في لمبه، ولرفضت شركة الاستيراد الشراء من شركة التصدير إلى انجلترا، ولأبت شركة التصدير أن تشتري من النساجين، والنساجون من الغزالين، والغزالون من شركه الاستيراد في ليفربول، وشركة الاستيراد في ليفر پول من شركة التصدير في نيو أورليانز، وهكذا.. وحينئذ لن يجد ولم جونس من يقبل شراء بالة سلمان التالية من القطن في العام اللاحق، أو لما استطاع بيعها بغير مائة وخمسين دولارا فحسب بدل مائتين. وهكذا يترتب على عجز جيمس وجيرانه عن بيع تبعهم هذا العام بجز سلمان ووليم جونس عن بيع قطنهم في العام التالي، أو تعرضهم للفقر لاضطرارهم إلى قبول ثمن أقل.

بالكيفية ذاتها.. لو أن الغزالين، أو النساجين، أو بحارة السفن، أو سائق القطارات، أو أي طائفة من الأفراد الذين يعاونون في تحويل قطن سلمان الذي زرعه في أمريكا إلى القماش الذي اشتراه جيمس في نياسالند.. لو أنهم طلبوا أجورًا أعلى مقابل مساعدتهم،

لاضطر سلمان إلى قبول ثمن أقل، أو لاضطر جيمس إلى دفع المزيد.

فالرجال والنساء في جميع أنحاء العالم يتقاسمون الثمن النهائي للسلعة الصادرة. ولو أخذ أحدهم من الثمن في أي مكان نصيبًا أكبر لنال غيره نصيبًا أقل. وبزيادة الإنتاج فحسب يمكن لأي منهم أن يحصل لنفسه على المزيد من غير أن يأخذ من شخص آخر، فلو حصل جيمس في العام التالي على مال أكثر بزيادة إنتاجه من التبغ، لأصبح أغلى مما كان دون أن يتسبب في إفقار شخص آخر، بل سوف يساهم حقا في زيادة ثروة غيره، لأن عمل الناس في حمل تبعه ونقله سيزيد: لكنه لو نال مالا أكثر بالحصول على ثمن أعلى النفس الكمية من التبغ، لاضطر بعض الأشخاص العاملين في نقل تبعه وصنعه إلى قبول ثمن أقل لعملهم، أو لاضطر مدخنوه إلى زيادة ما يدفعونه.

الفصل الرابع
الواردات والصادرات

رأينا الآن طريقتي عمل التجارة الدولية: رأينا كيف أن الأشياء التي يزرعها أقوام ويصنعونها يمكن بيعها أو تصديرها إلى أقوام آخرين يعيشون في الخارج، ورأينا كيف أن الأشياء التي بريدها ناس يمكن شراؤها أو استيرادها من ناس غيرهم يعيشون في الخارج أيضا. وحين أتى جيمس بتبعه إلى مركز التبغ اشترك في كلا النوعين من التجارة، إذ باع تبغه لكي يصدر إلى انجلترا للقوم الراغبين في تدخينه، واشترى قماشا من القطن الذي زرع في الولايات المتحدة وصنع في انجلترا وبيع له في إفريقية.

ولاحظنا أنه حين ترسل الأشياء من بلد ما لتباع في الخارج تسمى صادرات، وأنه حين تشترى الأشياء من أناس في الخارج تسمى واردات. وفي كل عام تصدر سلع كثيرة من كل بلد، وتستورد إليه سلع كثيرة، وتؤلف الواردات والصادرات معا التجارة الدولية للبلد.

ولما كان التبغ يزرع في نياسالند ليباع لأقوام خارجها فهو هى محصول تصدير، ومحاصيل التصدير الهامة الأخرى في إفريقية هي الكاكاو والبندق وزيت النخيل ولبه، والقطن والسمسم والشاي والبن. كذلك تصدر إفريقية المعادن مثل: النحاس والذهب والماس.

يصدر كل بلد الأشياء التي يستطيع إجادة إنتاجها ويستورد الأشياء التي يتعذر عليه صنعها: فالبلد الذي يحتوي على الذهب سوف يصدره إلى البلاد الفارغة منه إذا مول شخص ما آلات التعدين لاستخراجه من باطن الأرض، وتصدر معظم البلاد الإفريقية المحاصيل التي تزرعها لأن معظم الإفريقيين زراع. زرع جيمس التبغ لأنه عرف أن زراعته تجود في نياسالند ؛ ولأنه تعلم من أبيه طريقة زراعته ومعالجته، ولو أنه عاش في أوغندة أو في جزء آخر من نياسالند لكان من المحتمل أن يختار زراعة القطن لكي يحصل على مال يكفيه لشراء ما يحتاج إليه من المتاجر. ولو عاش في ساحل الذهب لكان من المحتمل أن يزرع الكاكاو، ولو عاش في نيجيريا لكان من المحتمل أن يزرع البندق أو أن يجمع لبه. ولو عاش في الملايو لزرع شجر المطاط أو لصاد السمك. وحيثما كان الإنسان، فإنه يحاول زراعة ما يعلم أن زراعته ستزكو وأنه سيباع بثمن مجز.

وبتصدير الأشياء التي يحسن البلد زراعتها أو صنعها يحصل على مال كاف لاستيراد الأشياء التي يعجز عن صنعها لنفسه. فالأرض في انجلترا ص غيرة المساحة، والسكان كثيرون. بل إنهم أكثر بكثير من العدد الذي يمكن توفير الغذاء له بزراعة هذه الرقعة الصغيرة من الأرض. لذلك كان الزراع فيها قليلين، ويقضي معظم القوم حياتهم العاملة في صنع الأشياء، فأهل لنكشير مثلا ظلوا يصنعون السلع القطنية سنوات طويلة إلى الآن، وهناك كثير من مهرة الغزالين والنساجين والمبيضين والصباغين في لنكشير من يشترون طعامهم بالمال الذي يحصلون عليه من صناعاتهم. هذا هو السبب في أن قطن سليمان جيء به إلى انجلترا ليصنع لجيمس.

ولو نظرت إلى الجدول الآتي لوجدت قائمتين من السلع، هما أهم صادرات ساحل الذهب و وارداته: فالقائمة الأولى على اليمين تبين الصادرات الخمسة التي يحصل منها أهل ساحل الذهب على معظم أموالهم، والقائمة الأخرى على اليسار تبين الواردات الجنسية التي ينفق عليها أهل ساحل الذهب معظم أموالهم:

التجارة الخارجية لساحل الذهب

الصادرات	الواردات
الكاكاو	المنسوجات القطنية
الخشب	أَنواع أُخرى من الملابس الماس
الماس	التبغ ولفافاته (السجاير)
الذهب	الآلات
خام المنجنيز	وسائل المواصلات

فأهل ساحل الذهب يرسلون إلى الخارِج الأشياء التي يزرعونها أو يستخرجونها من باطن الأرض، ويشترون من الخارِج الأشياء المصنوعة في المصانع مثل الملابس والآلات والدراجات وما إليها. وإذا ألقيت نظرة على قائمة توضح التجارة الدولية لإنجلترا لوجدت العكس: فصادرات انجلترا تتألق في معظمها من أشياء مصنوعة في المصانع، ومعظم وارداتها خامات،أي أشياء لم تصنع بعد. انظر إلى الجدول التالي الذي يبين قائمتين بأهم صادرات انجلترا ووارداتها:

التجارة الدولية للمملكة المتحدة (إنجلترا)

الصادرات	**الواردات**
الآلات	الأَطعمة والأشربة
وسائل المواصلات؛ أَي سيارات وسُفن وقاطرات وطيارات	بذور زيتية وفواكه جافة
مصنوعات من الحديد والصلب	زيوت، دهون، تبغ
منسوجات قطنية	أخشاب
أنواع أُخرى من الملابس	خام القطن
	الصوف والحرير

ويتوقف مقدار ما يستطيع بلد شراءه من الخارج على مقدار ما يستطيع بيعه للخارج. وسوف تتذكر أنه حين أراد جيمس أن يشترى قماشًا لزوجته وجب عليه في البداية أن يبيع بعض التبغ ليحصل على مال. فبالمثل، حين يريد أهل ساحل الذهب أن يشتروا أقشة وآلات و سيارات من الخارج، عليهم أن يصدروا أولا كاكاو وزيت نخيل ونبات الكولا ومعادن، حتى يحصلوا على مال يشترون به ما يريدون استيراده. ولو كان جيمس أخذ القماش دون دفع مال مقابله لكان مدينا للهندي صاحب المتجر، ولاستأداه الهندي فائدة، وحينما يتم

جيمس سداد دينه يكون في الوقت ذاته قد دفع للهندي أكثر من ثمن القماش. وبالطريقة ذاتها لو كانت واردات بلد أكثر مما يستطيع الوفاء بثمنه، أي لو آن وارداته زادت على صادراته لكان مدينا لبلد آخر. وسيجد، عاجلا أو آجلا، أنه يدفع مقابل وارداته مالا أكثر من قيمته النقدية؛ لأن عليه أن يدفع أيضا فوائد الدين. وربما وجد كذلك أن البلد الذي يدينه سيتوقف عن إرسال أي سلع أخرى إليه إلى أن يسدد دينه.. وهكذا نرى البلد الذي لا يصدر صادرات تكفي السداد ثمن وارداته إما أن يستدين، أو يجد نفسه عاجزا عن الحصول على كل الواردات التي يريدها.

ماذا يحدث لو صدر بلد أكثر مما يستورد؟

سيجد أولا أنه يدخر المال، فثلما ادخر جيمس شلنين و ثلاثة أرباع الشلن بإنفاق أربعين شلنا وربع الشلن فحسب بعد أن باع تبغا قيمته ثلاثة وأربعون شلنا، فكذلك يدخر الفرق كل بلد يشترى أقل مما يبيع. وقد أنفق جيمس طبعا شلنيه و ثلاثة أرباع الشلن قبل نهاية الشهر، والبلد الذي يدخر عاما وينفق في العام التالي ما ادخر، يجد صادراته أكثر من وارداته في العام الأول، ووارداته أكثر من صادراته في العام التالي. وعند نهاية السنة الثانية سيكون قد أنفق كل مدخراته. على أنه إن ثابر على ادخار الفرق ولم ينفق أبدا المال الذي أدخره فلسوف يجد القوم الراغبين في البيع له يفتقرون. فلو

أن جيمس قرر ألا يشتري قماشًا لزوجته، وأن يدخر النقود بإخفائها تحت أرض كوخه؛ السكان من المحتمل أن يعجز الغزالون و النساجون عن بيع قماشهم، وإذا لم يجدوا من يشتري قماشهم فسوف يرفضون صنع قطن سليمان. وهكذا يحل الفقر بهم جميعا. ولو أن أهل انجلترا بلغ بهم الفقر لدرجة العجز عن شراء تبغ جيمس، لوجد هذا نفسه هو الآخر عاجزا عن بيع تبعه في العام التالي.

وهكذا ترى أنه مالم يكن البلد راغبة في توفير بعض المال لكي ينفقه في العام التالي، أو مالم يكن راغبة في اقتراض مال يعرف في نفسه القدرة على سداده في عام آخر.. مالم يكن هذا ولا ذاك فإن صادراته ينبغي أن تكافئ وارداته. وبعبارة أخرى ينبغي ألا يشترى بلد سلعا أكثر أو أقل ما يستطيع أداء ثمنه. ولكن لا ينبغي الظن بأن الأقوام أو البلاد التي تقترض المال تزداد فقرا في جميع الحالات بسبب الاقتراض. فلو أن جيمس اقترض مالا ليشتري قماشا لزوجته لأفقره هذا على وجه التأكيد، لأنه سوف يضطر في النهاية إلى دفع مبلغ أكبر من ثمن القماش.. لكن لو أنه اقترض المال ليشتري عنزة صغيرة ليربيه ويبيعه بثمن يجاوز مجموع القرض وفائدته، لزاد ماله عندئذ ولم ينقص، لأنه اقترض مالا ليتمكن به من عمل شيء أكثر قيمة لا لمجرد إنفاقه على شيء يستهلك سريعة. فلو أنه اقترض

ثلاثة شلنات لشراء ذلك العنز الصغير ووعد بدفع شلن فائدة، ثم ربي العنز الصغير حتى كبر وسمن فباعه بخمسة عشر شلنا، لاستطاع سداد الشلنات الثلاثة التي اقترضها والشلن الفائدة، ولبق له أحد عشر شلنا..

لننظر إلى مسألة الاقتراض هذه بصورة أخرى: فلنفرض أن قرية ما في نيجيريا يبيع فلاحوها زيت النخيل.. إنهم يستخرجون الزيت بدق الثمار بالحجارة، وهذا يستغرق وقتا طويلا. فلو أن عنده معصرة زيت لأمكنهم الحصول على مزيد من الزيت من نفس الكمية من البذور وفي وقت أقل. لكن المعاصر لا تصنع في نيجيريا بل في انجلترا، وهي تتكلف مالا أكثر مما يحصل عليه كل فلاحي القرية أجرة عن سنوات من العمل الشاق. فلو أن شخصا ما أقرضهم النقود ليشتروا معصرة؛ لاستطاعوا بعد زمن غير طويل أن يحصلوا على مال كاف السداد الدين وفائدته. وجمع مال كاف لأداء ثمن المعصرة أسهل بعد البدء في الانتفاع بها، منه في حالة الاستمرار في استخراج الزيت بطريقة استخدام الحجارة، تلك الطريقة البطيئة المتلفة.

هذا نوع معقول من الاقتراض، فهو اقتراض بقصد صنع شيء. والبلاد- كالأفراد. تستطيع الاقتراض بحكمة لتصنع الأشياء الممكن بيعها لسداد الدين. وغالبا ما تكون البلاد فقيرة لأنها لا تملك آلات

تعين على إنتاج أشياء تباع، لأن فقرها يعجزها عن شراء الآلات. وكذلك يحل الفقر بالبلاد المنتجة للآلات لو أعجز الفقر عملاءها عن شراء الآلات. لذلك يجب على البلاد التي تنتج الآلات بغزارة أن تقرض البلاد الفقيرة حتى تستطيع شراء آلاتها.

ولو نظرت إلى سجلات مدفوعات الواردات والصادرات في بلاد مثل انجلترا والولايات المتحدة، لوجدت الصادرات تكلفت غالبا أكثر من الواردات، لأن الكثير من الصادرات بيع بالقرض البلاد فقيرة. وبنفس الطريقة تجد أن واردات البلاد الفقيرة أكثر من صادراتها، لأنها تقترض أشياء كالآلات والمحاريث العادية والآلية تستعين بها على زيادة الإنتاج، وهذه تسمى بالسلع الإنتاجية أو سلع رأس المال، والناس يرغبون فيها لأنها تفيد في إنتاج أشياء أخرى. أما السلع المطلوبة لذاتها – كالملابس – فتسمى سلعا استهلاكية، لأنها تشتري لتستهلك. وحين كانت أمريكا بلدا حديثا، ظلت تستورد سنوات طويلة أكثر مما كانت تصدر، فكانت تقترض من انجلترا مثلما تقترض المستعمرات اليوم. حتى مكنتها السلع الإنتاجية من صنع الكثير من السلع الأخرى، فازدادت ثروتها، وسددت ديونها، وأخذت اليوم تقرض بلادا أخرى، فإن صادرات أمريكا اليوم أكثر من وارداتها.

يسمى الفرق بين واردات البلد و صادراته بالميزان التجارى:.
فإذا كانت صادراته أكثر من وارداته كان معنى ذلك أنه يبيع أكثر مما يشتري، ويقال حينئذ إن الميزان في صالح البلد:، لأنه يقرض المال للبلاد الأخرى. وإذا كانت وارداته أكثر من صادراته فمعنى ذلك أنه يشتري أكثر م ا يبيع، ويقال حينئذ إن الميزان في غير صالحه: لأنه يكون حينئذ مدينا. فإذا كانت الأشياء التي يقترضها البلد سلعا إنتاجية تعينه على ازدياد ثروته فسرعان ما يستطيع الخلاص من دينه، وإذا كان العكس – أي إذا كانت الأشياء التي يقترضها لما استهلاكية – فسرعان ما يأخذ الفقر خناق أهله.

عرفنا في هذا الفصل أن البلاد – كالأفراد – ينبغي أن تبذل غاية الجهد في إنتاج ما تحسن، إن أرادت الحصول على مال تشترى به ما تريد. وليس هذا بالأمر العجيب، فالبلاد عبارة عن مجموعات من الأفراد. وعرفنا أيضا أنه يجب أن تشتري بعض البلاد من بعضها الآخر إن أرادت زيادة ثروتها، وأنه إن حل الفقر بقوم في مكان ما جلبوا على غيرهم الفقر؛ لأنهم لن يستطيعوا الشراء منهم. وعرفنا أن البلاد الأفراد لا يصح لها أن تقترض شيئا ترغب في استهلاكه، لكن لا بأس بأن تقترض ما تعرف أن بإمكانها أن تصنع به أشياء تكفي لسداد الدين والفائدة، ثم يفيض من قيمتها قدر تحتفظ به لنفسها.

الفصل الخامس

النقود والتجارة الدولية

رأينا في الفصل السابق أن البلد يستورد الأشياء التي يريدها ويصدر الأشياء التي يستطيع بيعها للأقوام التي في الخارج. وإن أراد أن يظل في منجى من الدين، فعليه أن يصدر أشياء تكافئ من حيث القيمة – الأشياء التي يستوردها، مثلما وجب على جيمس أن يبيع تبغا كانت قيمته تكافئ قيمة القماش الذي أراد شراءه ليظل في منجى من الدين.

هناك، على أي حال، فرق هام بين التجارة الدولية والتجارة الدائرة بين أشخاص في نفس البلد: ذلك أن للبلاد المختلفة نقودا مختلفة، حينما تسلم جيمس ثلاثة وأربعين شلنا مقابل تبغه عرف أنه يستطيع أخذها إلى أي متجر في نياسالند و شراء سلع قيمتها ثلاثة وأربعون شلنا. ولو عرض مجلس التبغ أن يدفع الثمن لجيمس بالدولارات – وهي العملة التي يستخدمها أهل الولايات المتحدة – لما قبلها جيمس لأنه سوف يعجز عن إنفاقها في نياسالند. وبالمثل لو عرض مندوب شركة التصدير في نيو أورليانز على وليم جونس جنيهات إنجليزية ثمنا لقطنه لرفض البيع لأن وليم جونس – أو

سليمان – سوف يعجز عن شراء أي شيء في الولايات المتحدة بالجنيهات الإنجليزية.

ماذا يحدث إذن حين تجرى تجارة بين بلدين؟ وإذا كان أهل انجلترا لا يستطيعون شراء الأشياء إلا بالجنيهات الانجليزية فحسب، وأهل الولايات المتحدة لا يستطيعون شراءها إلا بالدولارات فقط، فكيف يستطيع أحدهم أن يشتري من الآخر أو يبيع له؟

ما كانت هذه الصعوبة لتنشأ لو كان الناس يتبادلون الأشياء دون استخدام نقود بالمرة. فلو أن البلد الذي ينتج التبغ ويريد قماشا تبادل مع بلد ينتج القماش ويريد تبغا لتمت الصفقة بينهما من غير أن تكون بهما حاجة إلى استخدام نقود بالمرة، فسوف يؤدى البلد الأول قيمة القماش الذي يريده تبغا، ويؤدى الآخر قيمة طلبه من التبغ قماشا. وبنفس الطريقة، لو أراد الهندي شراء تبغ جيمس وكان كل ما يريد جيمس هو أن يشتري يتبعه قماشا، لما احتاج جيمس إلى إجهاد نفسه بالذهاب إلى مركز الشراء للحصول على ثلاثة وأربعين شلنا، ولذهب مباشرة إلى الهندي فسله تبغه،. وأخذ بدلا عنه القماش الذي أراده.

هناك، على أي حال، سببان حالا بين جيمس و بين فعل ذلك؛ أولهما أن الهندي لم يكن يريد التبغ بل أراد نقودا ليستطيع أن

يشتري بها طعاما وملابس لنفسه ولأسرته. وثانيهما أنه حتى لو كان الهندي مستعدا لقبول ثمن قماشه تبغا فإن جيمس كان يريد أشياء أخرى لم تكن في متجر الهندي، كان يريد أن يعود بعض ما حصل عليه إلى قريته ليشتري بعض الجعة أو قدرا من الملح، أو يعطى بعضه لأمه حتى تستطيع هي الأخرى شراء قدر من الملح لنفسها. وباستبدال النقود بالتبغ أمكن جيمس أن ينفق بقدر ما أراد هناك وقتئذ، وأن يحتفظ ببعض المال لإنفاقه في غير ذلك اليوم أو في غير ذلك المكان.

والبلاد، كالأفراد، غالبا ما يتعذر عليها العثور على بلاد أخرى تطلب على وجه التحديد ما تبيعه تلك، و تصنع على وجه التحديد ما تريد تلك البلاد شراءه. فالقوم الذين أرادوا شراء تبغ جيمس كانوا يعيشون في لندن، أي في انجلترا. والقوم الذين كانوا يصنعون القماش الذي كان أهل نياسالند يستوردونه كانوا يقيمون في نيو أورليانز ولنكشير. وما لم يستطيعوا استخدام النقود للمتاجرة مع نياسالند لما استطاعوا المتاجرة إطلاقًا.

بين بعض البلاد من الصداقة الوثيقة أو روابط الجوار ما يدفعها إلى استخدام نفس النوع من النقود. فقد كان بوسع جيمس أن يأخذ الثلاثة والأربعين شلنا التي حصل عليها من مركز التبغ فينفقها في روديسيا الشمالية أو الجنوبية. وبوسع المرء أن ينفق نفس النقود في

نيجيريا أو سيراليون أو غيبيا أو في ساحل الذهب. وتستخدم نفس النقود في تنجانيقا وكينيا وأوغنده. وبين بلاد أخرى من الصداقة ما يدفعها إلى الاتفاق على أن يقبل كل منها نقد الآخر حتى ولو لم يكن نفس نقده. ويتم هذا عن طريق البنوك، فلو كان جيمس أخذ أحد جنيهات نياسالند إلى اتحاد جنوب إفريقية لما استطاع إنفاقه في متاجر الاتحاد، لكنه كان يستطيع الذهاب به إلى بنك فيحصل مقابله على أحد جنيهات جنوب إفريقية، وحينئذ يستطيع إنفاقه في جنوب إفريقية. وكذلك لو أخذه إلى انجلترا لاستطاع إبداله بجنيه إنجليزي في أحد البنوك.

والبلاد التي تقبل إبدال الجنيه الإنجليزي في بنوكها بالنقود الممكن استخدامها فيها تسمى بلاد منطقة الإسترليني لأنها كلها توافق على قبول الجنيه الإسترليني (وهو اسم آخر للجنيه الانجليزي) مقابل نقودها الخاصة. وكل بلاد الكومنولث. (رابطة الشعوب البريطانية) داخلة ضمن منطقة الإسترليني – ما عدا كندا الداخلة ضمن منطقة الدولار أي أنها تقبل المدفوعات بالدولار وحده.

بوسعك أن ترى أنه ليس من العسير على البلاد الداخلة ضمن منطقة الإسترليني أن يتاجر بعضها مع البعض الآخر، لأن كلا منها

يستطيع استخدام نقود الآخر. أما التجارة مع البلاد الخارجة عن منطقة الإسترليني فأصعب من هذا على أي حال.. كيف تتم إذن؟

حين أرادت شركة الاستيراد الانجليزية أن تقدم عرضا بدولارات لشراء قطن سليمان، ذهب مدير المؤسسة إلى بنكه وطلب منه بعض الدولارات مقابل جنيهات إنجليزية، فاستفسر البنك من عملائه الآخرين عما إذا كان عند أحدهم دولارات بريد بدلها جنيهات إنجليزية. هنا، كان أحد عملاء البنك صانع خزف، وقد أرسل لتوه بعض الأقداح وأطباقها إلى تاجر في أمريكا لتباع في متجره في نيويورك. ولما كان التاجر أمريكيا فقد سدد ثمن الخزف بالدولارات، لكنه لم يرسل الدولارات إلى انجلترا لأنها لا يمكن إنفاقها هناك بل أخذها إلى بنكه في نيويورك وطلب منه أن يحفظها لصانع الخزف المقيم في انجلترا. فصانع الخزف يملك الآن هذه الدولارات رغم أنها كانت محفوظة في أمريكا، ولو أراد أن يشتري أي شيء من أمريكا لأمكنه أن يطلب من البنك إنفاق الدولارات حسب مشيئته، وأن يرسل بالبريد الأشياء التي اشتراها إليه في انجلترا. لكن لم يكن هناك شيء يريد شراءه من أمريكا، وكان يريد ثمن خزفه بالجنيهات الإنجليزية، فذهب إلى بنكه في انجلترا وعرض عليه تغيير الدولارات المحفوظة لحسابه في نيويورك بجنيهات إنجليزية ليتسلمها في انجلترا. لذلك أعطاه البنك جنيهات شركة استيراد القطن، ومقابل

ذلك كتب الخراف إلى بنك نيويورك ليخبره بأن الدولارات أصبحت الآن ملكا الشركة استيراد القطن. و أمكن للخزاف الآن أن ينفق في انجلترا النقود التي حصل عليها من بيع خزفه لشخص أمريكي.

لما ملكت شركة الاستيراد الانجليزية الدولارات المحتفظ بها في بنك أمريكي أمكنها أن تشتري أشياء موجودة في أمريكا، أي أمكنها أن تعرض دولارات مقابل قطن سليمان. ولما قبلت شركة التصدير الأمريكية العرض، أخطرت شركة الاستيراد الإنجليزية مدير بنك نيويورك بأن الدولارات صارت الآن ملكا لشركة التصدير الأمريكية ثمنا للقطن.

تتم كل هذه التدابير بوساطة البنوك، لأن لكل بنك كثيرة من العملاء الذين يبيعون ويشترون في بلاد أخرى. ولو لم يستطع مندوب شركة الاستيراد الإنجليزية الذهاب إلى بنكه لشراء الدولارات لاضطر أن يبحث بنفسه عن شخص باع لتوه أشياء الشخص أمريكي وامتلك دولارات في بنك أسر يكى، وربما طال بحثه قبل أن يجد مثل هذا الشخص. لكن للبنك، على أي حال، عملاء في جميع أنحاء البلاد، ويكاد يكون مؤكدا أن واحدا منهم قد تاجر أخيرًا مع أمريكي. وإن لم يكن لدى أحد عملاء البنك أي دولارات، فبوسعه أن يسأل البنوك الأخرى عما إذا كان لأحد. من

عملائها دولارات.غير طريقة لشراء نوع النقود الذي تستخدمه بلاد أخرى هي الحصول عليه من بنك.

وأيا ما كان الأمر، فلو فرضنا أن الإنجليز يشترون من الأمريكيين أكثر ما يبيعونهم، لنتج عن ذلك ألا توجد دولارات يملكها الانجليز في أمريكا تكفي للوفاء بالقدر المطلوب من الدولارات الإنجليز الراغبين في الشراء من أمريكا. وربما اضطرت البنوك الانجليزية في النهاية إلى إخطار أحد عملائها الراغبين في الشراء من أمريكا بأنه لم يعد هناك مزيد من الدولارات يملكه إنجليز، وأن عليه أن ينتظر حتى يبيع احمد الانجليز شيئا ما مقابل دولارات ويرغب في إبدالها بجنيهات إنجليزية.

وكان من نتائج الحرب أن كثر حدوث هذه الظاهرة في جميع أنحاء العالم: فقد أنفقت البلاد المشتركة في الحرب قدرا كبيرا من وقتها في القتال أو في صنع الأسلحة التي تقاتل بها بحيث توقفت عن صنع سلع للبيع في الخارج، وبعد الحرب كان يعوزها جميعا النقد الأجنبي. ووجدت شعوب منطقة الإسترليني خاصة –وهي الشعوب التي تستخدم الجنيه الانجليزي عملة لها أو تقبله عند الدفع. أنها في حاجة إلى الشراء من الأمريكيين أكثر مما كان الأمريكيون في حاجة إلى الشراء منها. وكان معنى هذا أنه رغم أن كثيرا من الأمريكيين كانوا يملكون جنيهات إنجليزية في بلاد المنطقة

الإسترلينية، كان قليل من الأفراد في المنطقة الإسترلينية يملكون دولارات في البنوك القائمة في منطقة الدولار. وبتعبير آخر: كان من أثر الحرب في الأقوام المقيمة خارج أمريكا أن قلت الدولارات واشتدت الحاجة إليها ؛ أي قل نوع النقود الممكن إنفاقها في أمريكا.

وحين يندر أي نوع من النقود يجب إنفاقه بحكمة، حتى لا يذهب ضياعا وينفد. فكما أن الأسر ذات المال الضئيل ينبغي ألا تنفقه إلا على الأشياء التي تحتاج إليها أشد الحاجة، فكذلك البلاد التي يندر ما لديها من نقود صالحة للتعامل بها مع بلاد أخرى، يجب ألا تشتري بهذه النقود إلا ما يكون أهلها في أشد الحاجة إليه. على أن هذا ليس باليسير في حالة البلد بسره في حالة الأفراد. إذ أن اتفاق أهل نياسالند جميعا على ما يريدون أن يفعلوه بدولاراتهم أصعب من اتفاق جيمس، وزوجته على تقرير كيفية إنفاق ثلاثة وأربعين شلنًا.

إذا تعذر على أهل بلد أن يتفقوا على هذا الأمر، كان على الحكومة أن تفرضه عليهم فرضا، من أجل مصلحتهم طبعا.. ومن الطرق التي تضمن بها الحكومة إنفاق شعبها أموالهم في ما يحتاجون إليه أمس الحاجة من البلاد الأجنبية، تحريم استيراد شيء بالمرة دون الحصول مقدما على إذن استيراد ثم لا تمنح أذون استيراد إلا

للسلع التي تشتد الحاجة إليها فيسب. فإذا ندرت الدولارات لا تستطيع أي شركة استيراد الحصول على دولارات من بنكها إلا إذا حصلت مقدما على إذن استيراد. ولا تستطيع ذلك إلا إذا أقنعت الحكومة بأن ما تريد استيراده يحتاج إليه الأهالي أكثر مما يحتاجون إلى أي شيء آخر يمكن شراؤه بدولارات. بهذه الطريقة يمكن الحكومة أن تتأكد من أن الدولارات تنفق بحكمة قدر الإمكان.

وطبيعي أن خير طريقة للتصرف أمام بلد يعوزه النقد الأجنبي هي كسب المزيد منه بزيادة صادراته. وقد رأينا أن خير طريقة يكسب بها جيمس مزيدا من المال هي زراعة المزيد من التبغ أو القيام بمزيد من العمل. ونفس الأمر ينطبق على البلاد انطباقه على الناس. فإذا كان بلد في حاجة إلى أشياء تكلفه أكثر من الأشياء التي ينتجها أو يصنعها، فعليه أن يحاول زراعة وصناعة قدر أكبر مما كان يفعل. وقد يحدث أن يعجز بلد عن العثور على عملاء لما ينتج، أو أن يكون أهله منتجين فعلا أقصى ما يسعهم إنتاجه، فهنا يجب عليهم تحديد وارداتهم وخاصة من السلع الاستهلاكية، ويجب على الحكومة أن تضع نظام أذون الاستيراد إلى أن يتعلم الناس كيف ينتجون كمية كافية من أشياء ترغب بلاد أخرى في شرائها. وبذلك تستطيع أن تجد المال اللازم لشراء كل ما تريد من البلاد الأخرى.

الفصل السادس
صعوبات التجارة الدولية

قلنا في بداية هذه القصة إنها قصة لا نهاية لها، لأنها مستمرة في كل مكان وزمان. فطالما واصل جيمس زراعة التبغ في نياسالند وشراء الملابس، وطالما استمر عمال القطارات والسفن والمصانع في أعمالهم، وجد أناس أمثال سليمان في الولايات المتحدة من يشتري قطنهم. وطالما واصل سلمان زراعة القطن واستمر غزالو ونساجو ومبيضو وصباغو لنكشير يصنعونه قماشا مطبوعا، وطالما واصل كل الأفراد تقديم معونتهم في نقله عبر العالم، استطاع جيمس وجيرانه شراء الملابس لأنفسهم ولأسراتهم.

يسهم كل فرد في التجارة الدولية بطرق عدة مختلفة: حين باع جيمس محصوله التالي مثلا اشترى مزيدا من قماش لنكشير، وغطاء رأس لزوجته من الهند، وبعض الصابون من جنوب إفريقية، وبعض السكر من إفريقية الشرقية البرتغالية. وجب أولا استيراد كل هذه الأشياء إلى نياسالند، وقد دفع جيمس ثمنها بيع تبعه ليصدر. وكلما زادت كمية التبغ التي يستطيع زراعتها وبيعها كثرت الأشياء التي

يستطيع شراءها، وكلما زادت الأشياء الممكن تصديرها من نياسالند كثرت الأشياء الممكن استيرادها إلى نياسالند.

أهم درس يمكننا أن نتعلمه من هذه القصة هو أن أمرا واحدا يجعل قيام التجارة الدولية شيئا ميسورا، ألا وهو تعاون الناس على العمل معا. كان جيمس بطبيعة الحال معتادا معاونة أفراد آخرين في عملهم، فلو أن أحد جيرانه بنى لنفسه كوخا جديدا لعاونه جيمس في جمع الأخشاب اللازمة وفي تغطية السقف بالطين، ولعاونته زوجة جيمس في طلاء الجدران. وفي وقت الحصاد تحكم الظروف بأن يتعاون الرجال جميعا. لكن مساعدة المرء قومه في قريته أمر يختلف عن مساعدته لقوم لم يسبق له مجرد رؤيتهم بالمرة. جيران جيمس هم في نفس الوقت أصدقاؤه وأقاربه، وهم يساعدونه بقدر ما يساعدهم هو. ولكن ما شأنه بأولئك الناس الأغراب الذين يعيشون بعيدا عنه حتى ينهض لمساعدتهم؟

إن الباعث الرئيسي لمساعدة هذا الجمع الغفير من الناس لجيمس في إرسال تبعه إلى المتجر في لندن، حيث يمكن بيعه الرجال راغبين في تدخينه، كان رغبتهم في حصولهم بهذه الوسيلة على جزء من ثمنه. كانت هذه هي طريقتهم في كسب معاشهم. وقد نقلته شركات السكك الحديدية والنقل البحري، لأنها أخذت أجرا مقابل عملها هذا. كما حوله الصناع إلى تبغ غليون لأنهم عرفوا أنه

حين يتم ذلك يمكنهم طلب ثمن له أعلى مما دفعوه. والرجال الذين خدموا السكك الحديدية، والذين قادوا سيارات النقل، والذين حملوا التبغ في الميناء فعلوا ذلك لأنهم كانوا يؤجرون على أعمالهم.

إن هذا كله يعني بطبيعة الحال أن جيمس حين اشترى مقطعا من القماش من الهندي صاحب المتجر، أو حين باع حملا من التبغ المركز التبغ، كان يتاجر لا مع الهندي أو مع مركز التبغ فحسب، بل مع كثير غيرهما من الرجال. وقد بلغ الثمن ما بلغ لا لمجرد أن المشتري دفع ما قدر على دفعه وأن البائع طلب القدر الذي أراد، بل لأنه ينبغي، عند بيع أو شراء أي سلعة، أن تدخل في الاعتبار أنصبة كل الأفراد الذين ساعدوا في نقلها من عند الشخص الذي أنتجها في بداية الأمر إلى الشخص الذي يستهلكها، أي يستعملها ويستنفدها. وإن أراد شخص نصيبا أكبر فلا بد أن يأخذ شخص غيره نصيبا أقل، أو أن يدفع المشتري ثمنا أكثر.

ويعني هذا أيضا أنه إذا حدث أن توقفي من الحمل له من سلسلة المساعدين الذين يحملون قماش سليمان لجيمس أو تبغ جيمس لجون سميث، لتوقفت عملية التجارة كبها، فإذا أضرب عمال السكك الحديدية البرتغالية لما أمكن نقل تبغ جيمس إلى حيث يقوم مصنع التبغ، ولا جلب القماش الذي يريده إلى نياسالند، ولا وصوله إلى رفوف صاحب المتجر. وإذا قررت الحكومة في

انجلترا عدم السماح باستيراد أي كمية أخرى من التبغ لعجز جيمس عن بيع تبغه مالم يستورده بلد آخر. ولو قررت زوجة جيمس وسائر أهل نياسالند تفضيل القماش الياباني على القماش الإنجليزي لاضطر صانعو القماش الانجليزي إلى بيعه في مكان آخر.

هناك إذن طرق عدة متنوعة يمكن بها تعطيل التجارة الدولية، بعضها أخطر و أبعد مدى من البعض الآخر. فالاضطراب الناشي عن الإضراب سوف ينتهي بانتهائه. وحين يكون الأمر مجرد البحث عن عميل آخر، فلعل ذلك هو الآخر مشكلة لا تدوم طويلا إذا لم يكن العملاء المحتملون للمنتج غاية في الفقر. وأيا ما كان الأمر فأسوأ ما يعوق التجارة الدولية هو الحرب. خلال الحرب يوقف كثير من الأفراد أعمالهم السلمية كلية، وينفقون كل وقتهم في القتال أو في صنع السلاح. فشلا ذهب كثير من نساجى لنكشير إلى الجيش، وأصبح لكثير من الغزالين عمل آخر هو صنع القذائف. وأثناء الحرب تنسف السكك الحديدية والمصانع والمتاجر و تغرق السفن، فإن قرابة نصف السفن التي اعتادت نقل الأشياء إلى إفريقية قبل الحرب أغرقت قبل انتهائها. وتسبب الحرب قيام معوقات للتجارة الدولية في كل مكان، وتزيد في صعوبة قيام أي تجارة دولية، بل توقف بعضها تمامًا.

والكساد التجاري، يلي الحرب من حيث كونها أسوأ أنواع المعوقات، وهو يحدث حين يحول فقر الناس دون شراء هم من البعض الآخر. وقد يبدأ في جزء من العالم بسبب وجود معطل محلى للتجارة، قد يكون سوء المحصول. فلو بلغ الفقر بطائفة كبيرة من الناس درجة تمنعها من شراء ما اعتادت شراءه، فإن الفقر يحل بالباعة كذلك.

ولما كانت أصغر عملية في التجارة الدولية تمس أشخاصا كثيرين – يكفي أن تفكر في عدد الأشخاص الذين عاونوا في الإتيان يقطن سليمان إلى جيمس! – فكل اضطراب قد تترتب عليه آثار تمس مناطق كثيرة في أنحاء العالم. وكلما كان التعويق خطيرا كانت آثاره بنفس الخطورة. تذكر أن الكساد التجاري هو الذي جعل من العسير على والد جيمس بيع تبغه. و يسمى الكساد أحيانا هبوط الأثمان. وفي حالة الكساد أو هبوط الأثمان ينتج المنتجون أشياء كثيرة، لكن لا يمكن بيع معظمها، لأن فقر الناس بلغ درجة حالت بينهم وبين الشراء. والأمان تهبط لأن البائعين لم يستطيعوا بيع شيء من بضائعهم بالمرة، إذ لم يرضوا بالثمن المنخفض الذي يستطيع كل المشترين عرضه.

ونقيض الكساد أو هبوط الأثمان هو التضخم التجارى أو ارتفاع الأثمان.ويحدث هذا حين توجد وفرة في النقود المخصصة للإنفاق مع ندرة في السلع المعروضة للبيع، فترتفع الأسعار لأن الناس يتلهفون على اقتناء السلع بحيث يرتضون دفع أثمان أعلى من قيمتها كما يحسبون. ويجد ناس مثل جيمس أنهم ليسوا أغنياء بالقدر الذي تصوروه لأن نقوده صارت تشتري سلعا أقل بكثير مما اعتادت. هذا هو الأمر الذي تحدث بعد الحرب حين تندر السلع، لأن كثيرا منها تلف بفعل أعمال الأعداء ولأن أشخاصا كثيرين توقفوا عن صنعها لكي يحاربوا.

ومن أخطر نتائج أي معوق كبير طويل الأمد – مثل الحرب أو الكساد – قلب الميزان التجاري بصورة يصعب إصلاحها. فهي تغرق بعض البلاد بالديون للبعض الآخر بحيث يصعب عليها التخلص من مديونيتها بعد ذلك. وسوف تتذكر أننا لاحظنا أن التجارة بين البلاد تزداد صعوبة باستخدام البلاد المختلفة نقودا مختلفة. ويجب للشراء من بلد آخر التمكن من الحصول على بعض نقود ذلك البلد. ففيما يخص البلاد الداخلة ضمن كتلة الإسترليني، كل ما ينبغي على المرء عمله هو شراء نقودها بما لديه من جنيهات إنجليزية، ما دامت بلاد الكتلة الإسترلينية تقبل الجنيهات الإنجليزية نقدًا.

أما الطريقة الوحيدة للحصول على نقود خارج الكتلة الإسترلينية فهي تصدير السلع إلى تلك البلاد.

والآن، في الأوقات العادية، حين يجرى تيار مستمر من التجارة بين البلاد التي تستخدم الدولار مثلا والبلاد التي تستخدم الجهات الإنجليزية، يتوافر لدى كل من الطرفين كميات وفيرة من نقود الآخر ؛ لأن كليهما يصدر للأخر بصورة مستمرة.وحين يحل معرقل خطير، كرب أو كساد، يمنع هذا المعرقل أحد الجانبين من الشراء من الآخر أو البيع له مدة طويلة، فلا يتوافر لأحدهما سوى قدر جد ضئيل من نقود الآخر، بينما يتكدس لدى الآخر قدر من النقود الأجنبية أكثر مما يريد. والحل الوحيد أمام البلد الذي عنده قدر جد ضئيل من النقود الأجنبية هو إيقاف استيراد الأشياء التي يجب دفع ثمنها بالنقود الأجنبية، وتصدير أشياء أكثر يمكن بيعها مقابل نقود أجنبية.

رأينا أن أي بلد يستطيع إيقاف استيراد الأشياء التي تتطلب نقودًا أجنبية إذا فرض نظام أذون الاستيراد ومنحها فسب للأشياء التي لا تتطلب نقدًا أجنبية. وقد لا يمكن على أي حال إيقاف الاستيراد كلية، فلا يستطيع امرؤ أن يعيش بدون ملابس بالمرة ولو أوغل في الاستدانة بشرائها، ويتعذر عليه أكثر من ذلك أن يعيش دون طعام. وسوف تواصل البلاد التي تشترى الضروريات بنقود

أجنبية استيرادها حتى لو كان معنى هذا إيغالها في الاستدانة. فحالما ينقلب الميزان التجاري بفعل معرقل طويل المدى كرب أو كساد، قد يظل البلد مدينة زمنا طويلا إلى أن يتخلص من دينه. وقد يكون من الضروري له أن يحدد الواردات وأن يشحذ الهمة لزيادة صادراته لسنوات عدة بعد أن تنتهي فترة التعويق.

ختامًا لهذه القصة، نستطيع أن نؤكد مرة أخرى أنها قصة تعاون دولي على نطاق واسع. فالتجارة الدولية تجارة بين عدة بلاد كلها تتعاون في نفس الوقت. فالتجارة بين سليمان وجيمس، أو بين جيمس وجون سميث، مجرد أمثلة لأنواع واضحة السهولة من التجارة التي يتطلب قيامها كثرة من الأقوام ومن البلاد المختلفة. هذا النوع من التعاون الدولي ممكن، لأن فائدة التجارة مقسمة على أقوام من أمه كثيرة. ومن ناحية أخرى يتعذر قيامها إن لم يتمكن بعض الأقوام ذوى الشأن من الاشتراك فيها أو إن لم يقوموا بذلك. بهذه الصورة يعتمد بعض البشر في جميع أنحاء العالم على بعض من أجل حياتهم؛ ورخاء كل فرد في النهاية أمر لا بُد منه لرخاء الجميع.

الفهرس